زمن الوداع
النيل يودع أحبابه

الطبعة الأولى
1445 هـ
2024 م

اسم الكتاب : زمن الوداع النيل يودع أحبابه
التأليف : أ. . حلمي محمد القاعود
موضوع الكتاب : سيرة ذاتية
عدد الصفحات : 224صفحة
عدد الملازم : 14ملزمة
مقاس الكتاب : 14* 21
عدد الطبعات : الطبعة الأولى
رقم الإيداع :2693 /2024
الترقيم الدولي : 978 - 977 -669 -881

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع، والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

حلمي محمد القاعود

زمن الوداع
النيل يودع أحبابه

الجزء الرابع من السيرة الذاتية

(بدأت الكتابة في هذا الجزء مع أوائل شهر مارس 2023م، على فترات متباعدة).

1 - القرية الظالم أهلها!

عشت عمري في القرية، لم أبرحها للسكنى في المدينة أبدا. وإن كنت الآن أندم على ذلك، فقد تغيّر الناس، وتغيّرت الأحوال، وما كان وضعا معقولا في زمنه، بات الآن غير معقول ولا مقبول.

كانت هناك تجربة طريفة في مقتبل حياتي العملية، أردت أن أسكن في المدينة الكائنة على الضفة الأخرى للنهر من أجل أن أوفر على نفسي السفر اليومي، وأفرغ لبعض الأمور الأخرى. استأجرت غرفة في بيت زميل لي، ووضعت فيها أثاثا متواضعا على أن أغيّره فيما بعد، أو أغيّر السكن ذاته ليكون في مكان أرحب وأفضل.

ليلة واحدة قضيتها في الغرفة، لم أسترح للحياة فيها. شعرت بضيق شديد، واختناق لا أعرف سببا له، لا أهل ولا أصحاب، أين القرية ورحابتها؟ أين الطرقات الزراعية الهادئة والزراعات الخضراء، والرحلة بعد صلاة المغرب مع الأصدقاء حتى تأتي العشاء، ثم الجلوس إلى الراديو مع القراءة والكتابة، ويأتي بعدها الخروج مرة أخرى في ليالي الصيف وخاصة الليالي المقمرة، ومشاهدة النيل، والنجوم تلمع على صفحته الفضية، والمراكب

المحملة بالرمل والزلط التي تغطس حتى حوافها، قادمة من ناحية كفر الزيات في طريقها إلى رشيد، والمراكب الخشبية الكبرى الآتية من الصعيد والمنحدرة مع تيار الفيضان إلى الشمال، تحمل بضائع الصعيد ومحاصيله.. أين.. أين..؟

لست من هواة الجلوس في المقاهي أو التجول في الشوارع المزدحمة والأسواق المكتظة. حارات المدينة تنبعث منها رائحة عطن مقززة، يدلق فيها النساء ماء الغسيل والفضلات، والبلدية لا تلاحق مخلفات السكان، فقضيت الليل ضائقا بنفسي وبالغرفة وبالمدينة!

خبر مزعج

في الصباح ذهبت إلى المدرسة، وعندما دلفت إلى مكتب الست الناظرة، وكانت تتعامل معي كأنها أم، قالت لي بصوت خافت:

– لدي خبر أريدك أن تسمعه.

شعرت أن الأمر ليس طيبا. فقد كانت تحاول ألا يسمعه أحد من الجالسين في مكتبها، واصلت كلامها:

– جاءنا أمر من المديرية، بضرورة تحديد الموقف من التجنيد.

قلت لها بتلقائية:

– معي تأجيل الخدمة العسكرية لمدة سنتين، قضيت نصفها تقريبا، وبقي النصف الآخر.

قالت لتحسم الموقف:

- غيرك يحمل تأجيلا، وذهب إلى المديرية.

استسلمت وذهبت إلى المديرية، وأخبرني المسئول في شئون العاملين أن كل التأجيلات ألغيت، ولا بد من مراجعة منطقة التجنيد، وكانت المراجعة بداية لتجنيدي في القوات المسلحة، فقد اقتضت الهزيمة العسكرية المذلة في يونيو 67 تجنيد كل من يحمل مؤهلا علميا، مع التساهل في الشروط الصحية، وإلغاء كل التأجيلات، لأن الأمر خطير، ويقتضي الحشد والاستعداد.

تجنيد وغربة

لم أبت ليلة أخرى في الغرفة التي استأجرتها، وذهبت فكرة الانتقال إلى المدينة إلى غير رجعة؛ فقد قضيت ست سنوات تقريبا في الحياة العسكرية، حتى تم تسريحي في منتصف 1974 بعد عبور القوات المسلحة وهدم خط بارليف الحصين، وتحرير مساحة لا بأس بها من سيناء. وبعد التسريح انشغلت بعملي ومواصلة الدراسة حتى كان الخروج الأول إلى الخليج معارا، فقضيت هناك أربع سنوات عدت بعدها لأقضي حوالي سنتين في التعليم العام ثم أنتقل إلى الجامعة. وكنت أقضي الليالي التي تصادف تتابع أيام جدول الدراسة في الكلية أو الامتحانات أو الكونترول في استراحة

الجامعة، وكانت عبارة عن عمارة معقولة يتوفر فيها مكان المبيت ومطبخ غير مكتمل.

أسعفتني بعد ذلك السيارة الصغيرة التي اشتريتها لتحمل أغراضي وكتبي، فكنت أحمل في الأيام التي أتوقع فيها المبيت بالمدينة بعض ما أحتاجه من طعام وشراب، وكنت أتناول الوجبة الرئيسية في مطعم نادي هيئة التدريس، وأقضي المساء والليل في إحدى غرف الاستراحة مع بعض الزملاء نتناقش ونتحاور، أو ننجز بعض الأعمال الخاصة بالتدريس، أو أجلس على مكتبي للقراءة والكتابة. كان يغمرني إحساس ابن السبيل الذي لا يستطيع أن يتواءم مع الإقامة في المدينة والقبول بالاندماج فيها، فالشعور بالراحة النفسية في المدينة مفقود لديّ، ولا أحب أن أفرض على نفسي شيئا لا تحبه أو لا تأنس إليه.

وحيد زمانه

كنت حين أنظر حولي أجد بعض المعيدين والموظفين الذي ولدوا وعاشوا في القرى، يحرصون أن يسكنوا في المدينة، بل إن بعضهم يذهب بعيدا حين يختار القاهرة أو الإسكندرية ليقيم فيها، ويبني أسرته، ويرتب حياته على أساس أنه من أهل المدن الكبرى. لقد ودعوا القرية إلى الأبد. أما أنا فقد ارتضيت العيش في القرية، ولعلي كنت وحيدا في زمني، لأفيد من الهدوء في القراءة والكتابة.

كان أهل القرية لا يعرفون معنى أستاذ في الجامعة أو مصطلح دكتور إلا في عيادة الطبيب أو الصيدلية، قلة نادرة للغاية كانت تدرك من هو الأستاذ الجامعي، وكنت سعيدا بذلك حتى لا يزعجني أحد بشئون أبنائهم في الكلية، وإن كانوا قد عرفوا الحقيقة على نطاق واسع بعد ذلك بسنوات. كانوا يظنون أنني أعمل في التعليم، وهو عنوان فضفاض يشمل الحضانة والمدرسة والكلية، ولا يعنيهم معرفة ما أقوم به على وجه الدقة، وعلى كل حال فهم يروننني شخصا بسيطا عاديا، وكان ذلك يريحني ويوفر لي وقتا أحرص عليه، وكنت أحدد مواعيد لقاءاتي بعد صلاة المغرب وأنا أتمشى على الطرق الزراعية فترة التريض اليومي. في أوقات الصلاة ألبس جلبابي، وأصلي مع الناس مثلي مثل أي أحد، وأمضي دون أن يبدو منهم اهتمام يذكر، في حين أنهم حين يشاهدون طالبا في كلية الطب أو الصيدلة يهرعون إليه، ويتحدثون عنه: الدكتور جاء، الدكتور ذهب، الدكتور تخرج، الدكتور عُـيّن،... وألاحظ أن هذا الطالب منذ التحاقه بالكلية يرتدي في القرية القميص والبنطلون والحذاء، لا يلبس الجلباب الزي الشائع، لأنه صار طبيبا وصيدلانيا، يحمل لقب «دكتور»، أو يناديه الناس كذلك، هذا هو الشخص المميز، مثله مثل الطالب الذي عين في النيابة أو دخل الكلية الحربية أو كلية الشرطة، أو تخرج في مدرسة الزراعة وعين مشرفا بالجمعية الزراعية وأضحى مسئولا عن

الحيازات والدورة الزراعية والتقاوي والمبيدات و السُّلَف الزراعية ومقاومة دودة القطن، أيام كانت هناك زراعة قطن، وغير ذلك.. الناس يهتمون عادة بمن ترتبط حياتهم ومصالحهم بوجوده وعمله، ولو كان ساعيا في محكمة، أو بوابا على مؤسسة حكومية.. أما الأستاذ الجامعي، أو المفكر أو الكاتب أو الشاعر، أو أمثالهم فلا يأبهون بهم، لأنهم لا يشكلون أهمية، ولا تنعقد عليهم مصلحة مباشرة..

أخبار سعيدة

ومن المفارقات أنهم في العقود الثلاثة الماضية أخذوا يولون وجوههم شطر درجات الماجستير والدكتوراه، وخاصة في الأزهر، حيث يبدو الحصول عليها أسهل وأسرع. وكان بعضهم يحرص أن يعلمني أن ابنه أو ابنته حصلت على الماجستير، أو أن أخاه ناقش الدكتوراه وسيذهب إعارة إلى بلد شقيق، كنت سعيدا بمثل هذه الأخبار لأنها تنبئ عن اتجاه صحيح نحو الانشغال بالعلم والمعرفة، والبعد عن الضغائن والأحقاد.

بعضهم لا يرتضي أن يحمل مؤهلا متوسطا أو عاليا، ويحلم أن يحمل الماجستير والدكتوراه، ولكنه لا يستطيع، وليس على استعداد للكفاح والبذل من أجلهما، وفي الوقت نفسه لا يريدك أن تحصل عليهما، ويعدك غاصبا لهما لأنك- في زعمه لا تستحقهما! لماذا؟ هو يرى ذلك، ويرتب على ذلك عداوة دفينة تبين في تصرفات

وكلامه ونظراته! لذلك كنت أفرح حين أعلم بحصول أحدهم على الماجستير أو الدكتوراه وأبادر بتهنئته، مع أنه لم يهنئني أبدا في أية مناسبة، وأفعل ذلك لأنه سيكون وأهله مشغولين بأمره بدلا من الانشغال بالآخرين!

شقة تمليك

في أثناء الخروج الثاني للعمل في الخليج أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات من القرن الماضي، زارني أحدهم في مقرّ سكني هناك، وكنت أعرف والده، وفهمت منه أنه بنى بيتا في أطراف المدينة التي أعمل بها في مصر، وأنه يبيع شُقَقه تمليكا، واتفقنا على أن يبيعني إحداها، قلت في نفسي: لتكن استراحة دائمة بدلا من استراحة الجامعة التي طالتها يد التغيير، ولم تعد مريحة، وقيل إن الإدارة ستتركها لأصحابها، وتبحث عن مكان آخر لاستراحة الأساتذة غير المقيمين في المدينة، وسيترتب على ذلك ترتيبات قد لا تكون ملائمة بالنسبة لبعضهم. رأيت أن وجود مكان خاص أتحرك فيه على راحتي، ويتسع لأولادي أو زملائي الذين يزورونني أفضل من الاستراحة الجامعية بالتأكيد. وقد أفدت منه بعد عودتي من الخارج، ومع أن الشخص الذي باع الشقة ظهر في صورة لم أتوقعها، فقد أمست الشقة ضرورة. كنت أتوقع أن أرى في هذا الشخص صورة أبيه، وهي صورة مضيئة لرجل طيب رحمه الله، خاب توقعي، وكان

الابن على العكس، وهو ما يحتم على السذج من أمثالي أن يتعامل مع الشخص من خلال سلوكه وتصرفاته، وليس من خلال النسب أو السمعة. لقد عانينا منه متاعب لا سبيل لسردها هنا، وما زلنا حتى اليوم نعاني من شطحاته وإيذائه، ونسأل الله السلامة!

بيت في القرية

ومع أني لم أسكن في الشقة بصورة دائمة، فقد فكرت في بناء بيت لي وللأولاد الذين كبروا، واستقر الرأي أن أبني بيتا كبيرا في القرية. كان متاحا في ذلك الحين البناء على الأرض الزراعية، وعرض أحدهم مساحة ملائمة تقرب من ربع فدان بسعر ملائم على أطراف القرية، ورأيتها جريمة أن أبني على أرض زراعية تنتج الخبز فيما يفترض، ورفضت العرض، الذي سيفتح الباب لآخرين كي يبيعوا أرضهم، وتتحول الأرض الزراعية من حولي إلى كتل خرسانية كالحة بليدة كئيبة، وقد يلعنني بعضهم لأني فتحت الباب لآخرين كي يدمّروا الأرض الخصبة.. وللأسف، ذهب شخص آخر واشترى الأرض المعروضة وبنى عليها وتبعه آخرون، وتحولت المنطقة الآن إلى حي كامل يزدحم بالبنايات القبيحة. لم أندم على ما فعلت، وحمدت الله أني لم أكن رائدا في ضياع هذه المساحة الزراعية الكبيرة.

كان هناك بيت موروث مساحته لا بأس بها تضم شجرة جميز ضخمة مع غرفتين متواضعين، وجراجا للسيارة، وباحة خالية،

فاقترح علي أحدهم البناء فيها، خاصة أن الشجرة بلغت أرذل العمر، وأخذت أفرعها تجف، وتتساقط، وانقطعت عن الإثمار. كنت متمسكا ببقائها حتى النهاية لأسباب عاطفية، فقال أحدهم: لقد اقتربت نهاية الشجرة ولا تكن مثاليا أكثر من اللازم. وأقيم البيت على مدى سنوات، وكانت تجربة حافلة في التعامل مع البشر والحجر، وقد تناولت جانبا منها في روايتي «شجرة الجميز» التي صدرت قبل نحو عامين، ولعلي أتناول الجوانب الأخرى في يوم ما إذا شاء رب العباد، وكان في العمر بقية.

أخطأت..

صارت القرية مستقرا دائما لي ولأسرتي، وارتبط الأبناء بالريف، ومن عمل منهم بالعاصمة أو غيرها، لا يجد مفرا من الارتباط بها والعودة إليها كلما سنحت الفرصة، وكذلك الأحفاد.

أخطأت حين بنيت البيت ليكون لكل ابن شقته الخاصة التي تشغل طبقة مستقلة. كان البيت ست طبقات، وصار أعلى بناية في القرية دون قصد، وقد فتح ذلك نار الجحيم على شخصي وأسرتي. الفلاحون يرون التميّز عنهم جريمة وخاصة إذا كان التميز لواحد منهم، فالتميز مع أصحاب السلطة مسألة طبيعية، لأنهم يركعون للمتسلّط ويتقربون إليه، فبيده مصالحهم ومنافعهم. أما أمثالي فلا يملك سلطة، بل لا يحبها، وإذا امتلكها لا يمارسها، وهذا يبدو في

أذهانهم ضعفا يجب استغلاله، وقهر المنتمين إليه إذا استطاعوا! لم أكن ضعيفا بهذا المعنى، بل كنت مسالما وفقا لطبيعتي، ولكنني واجهت محاولات العدوان التي وقعت علي أو على أسرتي بقوة العدل والقصاص والصفح في آخر الأمر!

تراث القهر

يقال: الفلاحون خبثاء، يكمنون في مواجهة القوة، ويتفرعنون أمام الاستسلام. قد يكون هذا صحيحا إلى حد كبير بحكم تراث القهر والاستبداد والظلم المهين على مدى التاريخ، هناك فضلاء بالتأكيد يعرفون أقدار الآخرين، ويقفون إلى جانبهم في المسرات والأحزان، وإن كان هؤلاء وأولاء يخضعون للتقاليد الاجتماعية في المناسبات العامة.

بسبب البيت الذي أقمته، كان هناك غضب مكتوم يحركه حقد شرس، كيف يكون بيت فلان أعلى بيت في القرية؟ ألم يكن هذا الرجل فقيرا، وبيته القديم صغيرا، ومتواضعا؟ لماذا فاجأنا بالبناء على هذه الصورة؟

ثم كان هناك سبب آخر، وهو الخروج للعمل في البلاد الشقيقة. يتصور كثير منهم أن من يخرج يغترف من المال ما لا يعد ولا يحصى، وأنه ليس حقا له وحده، ويجب أن يشاركه فيه الجيران

والأقارب والمعارف! وقد يبدو هذا التصور غير واقعي أو غير مقنع في ذهن بعض الناس، وأؤكد أنه واقعي ومنطقي مائة بالمائة، فشهوة الأخذ تشتعل، وخاصة إذا لم تكن من أصحاب السلطة القاهرة، أو الهيمنة الفاعلة، التي تصدّ عنك الجشع والطمع، لا يرضى بعضهم بهدية، ولا يقنع أحدهم بعطية، هناك تفكير يتركز حول ما أتيت به، وكم يبلغ، وأين ستنفقه، ولمن ستعطيه؟ بل يبحثون عن المكان الذي تضعه فيه: البنك أو البيت أو أرض تشتريها أو عقار تمتلكه.. إلخ. لا يفكرون كيف أتيت ببعض المال من عملك في الخارج؟ ولا يذكرون ما بذلته من جهد وعرق، وربما معاناة عنصرية أو تمييزية، إنهم يظنونك كلأ مستباحا بحكم مسالمتك أو بعدك عن السلطة، وقد ظل هذا التصور سائدا، حتى تدفق الشباب على العراق والخليج، وعبروا البحر الأبيض المتوسط إلى النمسا وهولندا وإيطاليا، وفرنسا، وشاعت فكرة الخروج بين الأسر التي تضم شبابا، يتخرجون من المعاهد الفنية والمدارس المتوسطة (زراعة، صناعة، تجارة، لا سلكي، تمريض،..)، ولا يجدون عملا، فيفكر الشاب في جواز السفر والتذكرة وشراء التأشيرة، ويخرج إلى المجهول بدلا من الجلوس عاطلا، أو قضاء ليله ونهاره على المقاهي التي انتشرت في القرى مع أشياء أخرى، لعلي أعود إليها بعد قليل.

مساحة حرام!

انشغل الفلاحون بأبنائهم، وتحويلات البنوك، وتزويجهم في أفراح صاخبة وبائسة، وإقامة بيوت ضيقة ذات طبقات مرتفعة مثل بيت فلان! أو استباحة الأرض الزراعية ببناء بيوت واسعة مستقلة عن عائلاتهم الكبرى. ولجأ بعضهم إلى إعادة بناء بيوتهم القائمة، مع أنها جيدة وتحتمل البقاء سنوات طويلة، ولكنهم يفعلون ذلك لإدخال السراميك والخرسانة المسلحة والأبواب الحديثة والحديدية والنوافذ الألوميتال، ثم طمعا وجشعا في الطرق العامة والشوارع الواسعة نسبيا، فيضيفون مساحة (حراما) إلى بيوتهم القائمة. أو يصنعون مصاطب عريضة أو شرفات تنهض من خلالها أعمدة إسمنتية يسحبون عليها سقفا من خرسانة لإقامة غرف إضافية جديدة، إنهم يتوسعون مجانا على حساب الحق العام الذي تعلمنا في طفولتنا أنه «وقف» لله يحرم الاقتراب منه، وأن أرض الطريق العمومي والشارع والحارة ملك للناس جميعا لا يجوز العدوان عليها. أين المسئولون في مجلس القرية أو غيره؟ أين الإدارة الهندسية بالمجلس؟ إنها لا تظهر إلا عندما يبني الفقراء، أما المحظوظون فلا تظهر عندهم أبدا!

جارحون كالصقور

كنت ساذجا حقا؛ لم أدرك طبيعة النفس البشرية وخاصة في القرية التي يزعم أهلها أنهم طيبون ومسالمون، ولكن الحقيقة غير ذلك كما أشرت سلفا. هل يصدق عليهم قول صلاح عبد الصبور:

الناس في بلادي جارحونَ كالصقورْ

غناؤُهم كرجفةِ الشتاءِ في ذُؤَابَة المطرْ

وضحكُهم يِئِزُّ كاللّهيبِ في الحَطَب

خُطَاهُمُ تُرِيدُ أن تَسُوخَ فِي الترابْ

ويقتلون، يسرقون، يشربون، يحشأُونْ

لكنهم بَشَرْ

وطيِّبُون حينَ يَملِكونَ قَبضَتَي نقودْ

ومؤمنون بالقدر.

وعند باب قريتي يجلس عمّي «مصطفى»

وهو يحبُّ المصطفى

لم ألتفت منذ زمان بعيد إلى ما كان يفعله التلاميذ الضعاف معي وأنا في المرحلة الابتدائية، يفتعلون الشجار والمعارك، دون

سبب واضح. لم أعلم أن السبب هو أني كنت أول الفصل، أو أول المحافظة، ولأني ابن رجل فقير فينبغي ألا أتفوق، وألا أتقدم على أبناء الأغنياء أو من يعدون كذلك مع أن غناهم بلغة اليوم هو نوع من الستر بامتلاك بعض الأفدنة. لماذا يعاني الفائقون الفقراء الأمرين بسب النجاح؟ مجرد النجاح في الدراسة يجعلهم يعانون من تنمر رفاقهم، فما بالك بنجاحهم في الحياة؟ هذا قانون القرية الذي ينسحب على المدينة والوطن كله، حين تكون فائقا، توقع أن تصير منصة تصويب دائمة بسبب ودون سبب، وخاصة من جانب الفاشلين والخيّاب، والذين لا يعملون!

الندم يتحرك

افتعل كثيرون معارك، وأبدوا حزازات مع شخصي المسالم ومع أولادي الذين لا يحملون ضغينة لأحد. ورأيت سلوكيات وأحوالا جعلتني أراجع نفسي، وأقول لها: ماذا لو أقمت بيتك في المدينة، حيث لا يعرفك أحد عن قرب، ولا تعرف أحدا إلا عن بعد، فكل شخص هناك مشغول بذاته، وأموره؟

قال لي صديق بعد سنوات:

– تخالف الناس وتبني في القرية، والناس تخرج منها، حتى الفلاح يهجرها، ويذهب إلى المدينة ليعمل في مصنع أو معمل أو بوابا لعمارة؟

فأضحك، وأرد:

- ارتبط مصيري بالقرية، ولا مفر من الاستمرار.

- مثالية الفرد تدخله أحيانا في متاهة لا يخرج منها.

- هذا صحيح، ولكن قطار الحياة أوشك على الوصول إلى المحط النهائي، ويصعب التراجع في آخر العمر!

في أعماقي يتحرك الندم بضراوة، فقد عانيت وأسرتي كثيرا، ربما لأن حساسيتنا زائدة عن الحد، وربما لأننا لم نتعوّد على أسلوب الناس الذين يظهرون غير ما يبطنون. ويتلونون وفق المصالح.. حتى تحية السلام أضحت لا تلقى إلا عندما يحتاجك الآخر، أو تفرض عليه الضرورة ذلك. وفي ظل سيولة القيم التي تحكم المجتمع المصري في العقدين الأخيرين خاصة، أضحى سلوك الأفراد اليومي محكوما بالمصلحة ولو كانت تافهة، لا نخوة ولا مروءة، ولا طيبة كنا نراها في الماضي، حتى صدق قول الشاعر القديم لبيد بن ربيعة:

ذَهَبَ الَّذينَ يُعاشُ في أَكنافِهِم وَبَقيتُ في خَلفٍ كَجِلدِ الأَجرَبِ!

قبل سيولة القيم في المجتمع بهذه الصورة الصارخة، كان يحكم الناس شيء اسمه «الحياء»! هذا الحياء اختفى بصورة شبه تامة، وخاصة لدى الإناث وحل مكانه شيء اسمه «البجاحة». علمنا الإسلام أن الحياء شعبة من شعب الإيمان، وكان الرسول صلى الله

عليه وسلم يحضنا عليه، وكان ابن القرية أكثر حياء من ابن المدينة، مما كان يوقعه أحيانا في بعض المآزق الاجتماعية. اليوم لا تجد للحياء مكانا إلا عند قلة نادرة.

عملة نادرة

كان الحياء مقياسا من مقاييس جمال المرأة، وكان الناس يعبرون عن قبح المرأة أحيانا، فيقولون: هذه المرأة وجهها مكشوف، كناية عن عدم حيائها، الذي يرافقه عادة صوت عال، ولغة سوقية متدنية، ولذا يتحاشاها الرجال والنساء على السواء. أما الحيية الخجول فكان الناس يتسابقون لخدمتها ومساعدتها والتعبير عن احترامها وتقديرها. اليوم ترى الفتاة أو المرأة الريفية التي كانت تستحي عملة نادرة، توجد في بعض البيوت التي ما زات قيمها صلبة متماسكة.

صارت المرأة ذات الوجه المكشوف تسود الشارع والسوق والمكتب والسيارات العامة والقطارات، ودور بعضهن في التسول واضح ومعلوم، تشاهد فتيات محجبات يرتدين أساور الذهب وخواتمه وسلاسله، ومع ذلك لا تتورع بعضهن أن تتسول وتمد اليد وتطلب العطاء بشراسة، لا تعرف الخجل ولا الحياء، وأمر الشباب في هذا المجال المتبجح لا يخفى!

ولا ريب أن للسينما والدراما والهواتف الذكية وسيدات

التلفزيون، دورا مؤثرا في اختفاء الحياء الذي هو قيمة جمالية للمرأة، وتشجيع البجاحة، وخاصة في الأمور التي تتعلق بالعلاقة بين الرجل والمرأة. بالطبع لا حياء في الدين كما نعلم، ولكن لغة الخطاب سواء من الرجل أو المرأة لا بد أن تكون لائقة، وكذلك السلوك العام، فهذا ما يفرق بين الإنسان والحيوان.. إن صورة الشباب على الشاشات، وخاصة في الدراما والسينما تحتاج إلى دراسات موسعة ترصد الكيفية التي يظهرون بها وتؤثر في سلوكهم وعلاقاتهم تأثيرا سلبيا، يطيح بالهوية الاجتماعية، وينزع تميزها ونقاءها، ويزرع هوية أخرى لقيطا من ثقافات مغايرة.

ظلمة الفجر

أذكر في الطفولة وصدر الشباب أن الفقراء الذين كانت تخذلهم الدنيا في توفير وجبة طعام متواضعة بالمفهوم الريفي آنذاك، فيضطرون إلى التسوّل. كان بعضهم يخرج مع ظلمة الفجر شبه ملثّم كي لا يعرفه أحد، ويحمل قفة أو شوالا، أو نحو ذلك يضع فيه ما يعطى له، ويمضي ساعات على قدميه في اتجاه بعض القرى والمدن التي يجهله فيها الناس، فيطلب العطاء ملثّما، أو غير واضح الملامح، ثم يعود بما حصل عليه في غبش المساء حيث لا يراه رجل أو امرأة، إنه في كل الأحوال لا يمدّ يده لأحد في القرية، ولا يطلب شيئا من أهلها، بل يتجلّد وهو في أمسّ الحاجة إلى المساعدة!

قارن ذلك الآن بشاب (شحْط)، صحته قوية، ويرفع سيجارة مستوردة على فمه، ويدق عليك الباب، ويقول لك دون خجل: أعطني كذا جنيها الآن (يحدد الرقم المطلوب بنفسه)، لأني سأقوم بعمل نقل دم أو أشعة أو تحليل فوري لابني أو بنتي في المدينة المجاورة، ولأنه كذّاب متبجح ينسى أنه جاء بالدعوى نفسها مرات سابقة، ولم يتنازل عن السيجارة الأجنبية التي تخرج من فمه متحدية الحياء والأخلاق، مثل إصبع يضعه في أعين من يستجدي منهم، وكأنه يطلب حقا، وليس فضلا.

لافتات متنوعة

قس على ذلك نوعيات عديدة تتفاوت في تبجحها، واستهبالها، وكأن الناس لا يفكرون ولا يعلمون، ووصل الأمر ببعضهم إلى استخدام مكبرات الصوت فوق عربات أو تكاتك أو وسائل أخرى للتسوّل تحت لافتات متنوعة، ولعلي ذكرت في بعض المناسبات حكاية المتسولين الذين ضبطهم بعض الأهالي على أطراف القرية وهم يغادرونها، ويفكّون الجبس المصطنع الذي وضعوه حول ساق أحدهم، بينما يجهر الآخر ويتفاخر بقيمة الغلة المرتفعة (فلوس التسول)، التي جمعوها من البسطاء الذين صدقوا حيلتهم القبيحة والكريهة!

وأضحى مألوفا أن تجد أعدادا غير قليلة من المنتقبات اللاتي يجلسن في إشارات المرور أو عند المطبات، ومعهن أطفال أبرياء

صغار، وبعضهن يدرن على نوافذ السيارات للاستجداء من الركاب، صحتهن جيدة، وقدراتهن العملية قوية، ولو طلبت واحدة منهن لتنظيف بيت أو الإسهام في عمل منزلي مقابل أجر معقول، فإنها ترفض لأنها تفضل التسول المريح على العمل الحلال الذي يحفظ كرامتها وحياءها.

أصدقاء الفلاح

لا أظن سيولة القيم التي أصابت المجتمع في العقدين الأخيرين، وغيّرت القرية إلى حد كبير، تجعل من الإقامة في الريف أمرا مستحبا. فلم يعد الريف هو الهدوء والسكينة والخضرة والماء الجاري وصوت الطيور المغردة والبلابل الصادحة والكروانات المسبحة، وأصدقاء الفلاح التاريخيين، الهدهد وأبو قردان، والفتاح (أبو فصادة).

لم تعرف القرية الهدوء مذ دخلها مكبر الصوت والتوك توك وسرادقات الأفراح والمعازي، وحركة الباعة الجائلين الصاخبة، فضلا عن بائعي أنابيب البوتاجاز ودقاتهم الصارخة، وسلوكيات الأجيال الجديدة التي تقلد ما تشاهده في التلفزيون والهواتف الذكية من أفلام ودراما تقدم العنف والهمجية والصراخ والصياح والمعارك التي تثير إعجاب الشباب وتبهرهم.

على مدار الليل والنهار تجري في شوارع القرية تلك الدواب الحديدية كما يسخر بعض أصدقائي، التي لم يكن للمصريين بها عهد قبل ثلاثة عقود تقريبا، أقصد التكاتك والمشتق منها (التروسيكل)، وهي لا تكتفي بنقل الركاب من مكان إلى آخر، ولكنها تشنف آذانهم بأحدث أغاني (المهرجانات) مع صخبها الموسيقي المصمي، وسرعتها الشديدة التي لا تراعي طفلا يحبو، أو آخر يلعب أمام بيته، وإذا عرفنا أن كثيرا من الأطفال يقودون هذه المركبة أو الدابة الحديدية، أدركنا مدى الفوضى والضجيج والمشكلات التي تسود القرية، وتحرم أهلها من الهدوء والسكينة.

نادي الأغنياء

أضف إلى ذلك أن أهل القرية والشباب الذي يعمل في الخارج يتنافسون في شراء السيارات الخاصة، كل يريد أن تقف أمام بيته الخرساني الكالح سيارة يركبها ويتيه بها في أرجاء القرية، كي يقال إن فلانا عنده سيارة، ودخل نادي الأغنياء وأصحاب الحيثية، مع أنه لا ضرورة للسيارة في حياته، فهو لا يسافر مشاوير طويلة يوميا، وليس رجل أعمال يحتاج إلى توفير الوقت وسرعة إنجاز أعماله، وقد لا يغادر القرية إطلاقا، أو يتركها إلا مرة أو مرتين في العام ليزور بعض أقاربه، أو ينجز أمرا في مدينة بعيدة. إنهم الآن يتباهون بالسيارات في حفلات الأعراس، التي يتسابقون فيها بطريقة مزعجة، وقد لا

تسلم من تحويل العرس إلى كارثة بانقلاب سيارة، أو سقوطها في الترعة أو المصرف، أو تصادمها مع سيارة أخرى منافسة في إظهار براعة السائق وقدرته على تجاوز الآخر!

ضرورة قصوى

أذكر أنني حين اقتنيت سيارة، كان ذلك لضرورة قصوى، من أجل أسرتي، وعملي. كان السبب المباشر عملية إجهاض جرت لربة البيت، وحينها (أوائل الثمانينيات) لم تكن هناك خدمات صحية أو علاجية، ولم نجد سيارة في القرية أو على الطريق الواصل بين القرية والمدينة. ولولا لطف الله لضاعت المريضة، فقد ظهرت سيارة ربع نقل كانت في طريقها إلى نقل حمولة ما، وقام السائق بنقل المريضة إلى أقرب مستشفى بالمدينة، ومنها أركبونا الإسعاف إلى عاصمة المحافظة. كان يوما عصيبا، وقد لطف الله بنا وبالصغار الذين كانوا في انتظار المريضة فأنقذها. وتحتم علي لهذا السبب وأسباب أخرى أن أقتني سيارة، وأنا لا أعرف القيادة، بل لم أعرف قيادة دراجة، فكان ما كان...

لاحظت أن الغيرة تأججت مرة أخرى وعرفت طريقها إلى القوم، كيف يقتني فلان سيارة، ونحن لا؟ لا يعلمون السبب القاهر الذي دفعني لاقتنائها. ظنوا أنها رفاهية، مع أنها تحتاج في مثل حالتي إلى مصروفات تعادل مصروفات البيت، ورأيت زميلا يعمل مدرسا

في القرية وليس في الجامعة أو المدينة البعيدة يشتري على الفور سيارة مستعملة، ويقودها يوميا من بيته إلى المدرسة (حوالي خمسمائة متر) ويعود بها بعد انتهاء اليوم المدرسي، وظل على ذلك عدة شهور، ثم تخلص منها. لا أعرف الأسباب، ولكن القوم في خلال هذه الفترة أخذوا يقلدون الزميل المدرس، بل يقلدونني بالأحرى ويقتنون سيارات مستعملة، لم يشتر أحدهم سيارة جديدة مثل سيارتي، ولكنها شهوة التقليد، ومنطق، «لا أحد أحسن من أحد»، والسؤال: هل تكون المنافسة في اقتناء السيارات غير الضرورية، أو في أشياء أهم وأكثر فائدة للمنافس وللناس؟

مشكلات ومشاجرات

مع التوسع في خروج الشباب إلى الخارج، اكتظت شوارع القرية بالسيارات المستعملة من الأنواع الحديثة، والوافدة مع أصحابها من البلاد التي يعملون بها، وعدد منهم يدور بسياراته في شوارع القرية على مدار الساعة، والغاية هي الاستعراض، وإن كنت أراها إسرافا في استهلاك الوقود دون داع، والقرآن الكريم ينهى عن الإسراف: «وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» (الأعراف: 31).

وكم حدثت مشكلات ومشاجرات بين قائدي هذه السيارات وسائقي التكاتك، بسبب السرعة، والرعونة في القيادة. وتشعر أحيانا أمام زحام الشوارع والحارات أنك في ميدان رمسيس أو

شوارع وسط القاهرة المكتظة التي تضج بآلات التنبيه وصراخ السائقين، وتجمعات الأهالي لفض الاشتباكات!

أما مكبرات الصوت فأمرها أعجب، فقد استراح معظم الناس حين اقتصر العزاء على الجنازة، ولكن بعض من يشتهون الاستعراض، لا يكفون عن إقامة السرادقات، وتعليق مكبرات الصوت في الاتجاهات الأربعة، فلا يشفقون على مريض، ولا يرفقون بمتعب، ولا يرحمون راغبا في النوم والراحة. ومع أن تكاليف هذه السرادقات كبيرة، وتفوق طاقة بعضهم أحيانا إلا أن شهوة الاختيال والخيلاء تفوق منطق العقل والاتزان.

الفرح الحقيقي

وسرادقات الأفراح أشد وأنكي من سرادقات العزاء، وهي لا تطاق مع صخب الموسيقي أو الغناء الذي تنقله مكبرات الصوت إلى أربعة أرجاء القرية، وإذا تحدثت مع أحدهم بشأن هذا الصخب، يرد عليك بحدة: دعنا نفرح!

هل الفرح يكون بهذا الشكل الصاخب؟ كان الفرح قديما، فرحا حقيقيا.، فرحا من القلب، يضيء ويزهر، ولكن هذا الفرح الكاذب، أو البهجة المزيفة لا تتجاوز الشكل، إنها تذهب مع سكوت الطبل وتوقف الزمر. كانت الزفة قديما حقيقية بغير مكبر صوت، وكان

فيها مغنون شعبيون يشنفون الآذان، ويلقون مواويل ذات معنى ومبنى، وتؤثر فيمن يستمع ويطرب، وكانت البساطة الأنيقة تملأ القلب والوجدان، ويشعر أصحاب الفرح أنهم سعداء حقيقيون.. أما الفرح البلاستيك الذي لا طعم له ولا لون ولا رائحة، فهو فرح مغشوش، بل فرح بائس، لأن كثيرا من أصحابه يقوم بعد ذهاب المعازيم بحساب الديون التي يتوجب عليه أن يدفعها للدائنين، وبعضهم يقترض من البنك الزراعي أو غيره تحت لافتة ما، وعليه في كل الأحوال أن يسدد ما عليه مقترنا بالفوائد المركبة، وإلا دخل في بحر الظلمات!

أفراح هذا الزمان تغص بتقاليع لم تعرفها القرية إلا من عقود قليلة. إن سهرة السرادقات الخاصة بالأفراح تستمر أحيانا حتى مطلع الفجر، ومع الصخب المقزّز تُنصب موائد السرور البلاستيكي والابتهاج الزائف، وهي عبارة عن مشروبات البيرة وما يشبهها، ثم الشيشة التي تقرقر بمخدر الحشيش، وهناك من يفضل أن يستنشق «البودرة» وهو اسم جامع لمخدرات العصر غير التقليدية!

قبل سهرات الأفراح تأتي زفة «العفش»! أي والله زفة للعفش الذي تدخل به العروس على بيتها الجديد. وهو عفش مبالغ فيه: عشرات الأطقم من الملابس الداخلية والخارجية للعروس، والفوط والملايات وعـشرات الوحدات من الأدوات التي

تستخدمها في البيت والمطبخ وغيرها، تحشر في أسطول من سيارات نصف نقل وتروسيكلات وتكاتك، ويحتشد فيها وحولها شباب يشكلون كائنات جسمانية خشبية أو تشبه الحجارة، لها ضجيج موحش، وتكاد تجزم أنها بلا قلوب ولا مشاعر، ومنهم من يقود موتوسيكلات يؤدي من خلالها ألعابا وحركات مميتة، ويصدر أصواتا صاخبة خشنة تضاف إلى صخب أسطول الزفة، وآخرون يركبون سيارة (الدي جي) الذي يبث ما يسمى بالأغاني الشبابية، بصوت يكاد يهز الأبنية ويخلع الأفئدة، فيحيلون القرية إلى كتلة من الجمر المشتعل في قلوب المرضى والمتعبين. لا رحمة ولا ذوق ولا شعور.. ولا حياء!!

شباب الزفة نفسه هو الذي يشكل في الهزيع الأخير من الليل قطعانا تصيح وتجأر، في شوارع القرية وحواريها، والناس نيام لا يبالون، وكأنهم ولدوا بلا أب يوجه، ولا أم تربي، وهم في غيهم يمرحون ويرتعون ويلعبون، بغير رقيب ولا حسيب!

قارن ذلك بزفة زمان، كانت الجمال تتهادى وهي تحمل العفش البسيط، المراتب والمخدات، والألحفة، والنحاس، والدولاب، ويتبعها الفتيات بأغاني الفرح الشعبية وهن يحملن صواني القلل، وأدوات الخبيز، والطبيخ، وأشياء العروس الخاصة.

زفة معاكسة

الطريف أن شهورا قليلة أو بعض السنوات المعدودة، تمضي بعد هذه الزفة الضخمة الصاخبة، لتبدأ زفة أخرى معاكسة، حيث ينكمش الأسطول الطويل المزدحم الصاخب إلى سيارة واحدة صامتة حزينة تعود نحو المكان الذي انطلقت منه أول مرة، حيث لم يوفق الطرفان في زيجتهما القائمة على الاستعراض الشكلي الذي يسعى للظهور أمام الأهالي بمظهر السعيد القوي، ويريد أن يثبت أن السعادة بحجم الإنفاق، والعفش، وتقديم المخدرات في ليالي العرس! كثير من حالات الزفاف الصاخب تنتهي نهاية غير سعيدة، وإن استغرقت بعض الوقت، لأنه لم يكن زفاف الرضا والإخلاص، والرغبة في بناء حياة طيبة تقوم على التعاون والتسامح والتراحم ومراعاة شعور الآخرين..! أقل ما توصف به هذه الأعراس أنها عدوان على الناس وخاصة المرضى، ولذا لا تتوج بالتوفيق في معظم الحالات!

التغاضي واضح

شهور الصيف وأيام الأعياد من أشق أيام القرية بسبب هذه السرادقات والسهرات، التي تجاهر بتناول المخدرات والمنكرات، فما عاد أحد يستتر أو يتخفى وهو يقارف الخطأ، أو يحفل بإبعاد شبهة الانحراف عن نفسه، بل إن بعضهم يعدها تعبيرا عن الذات،

وانتصارا على المجتمع العاجز عن ردعه أو تطبيق القانون عليه.. ما دام الأمر في إطار الممارسة الشخصية فالتغاضي واضح، ولكننا نسمع بين حين وآخر عن القبض على ابن فلان أو ابن علان، لماذا؟ لأنه يتاجر في السموم المحرمة! وبعد شهور أو سنوات تأتي أخبار الإفراج عن المحبوس ممزوجة بالتهاني!

ساعد على نشر السموم وترويجها انتشار المقاهي بشكل لافت. القرى لم تعرف المقاهي قبل الثمانينيات، وإذا عرفت فهي مجرد نصبة لخدمة المسافرين على الطريق، أو أماكن انتظار السيارات القليلة. وينتهي دورها مع الغروب، حيث يأوي الناس إلى بيوتهم. ولكننا أخيرا أخذنا نستقبل أخبارها وما يرتبط بها أحيانا من سلوكيات غير سوية، وباتت الأخبار شبه معتادة أو مألوفة! وكم يحدث فيها من شجارات واشتباكات بالأيدي أو شتائم بذيئة متدنية، تجري بين الرواد الذين لا ينفضّون من على مقاعدهم إلا مع ضوء الصباح، دون أن يصلّوا الفجر! ولكنهم يثيرون غضب من يسكنون حول المقاهي بإزعاجهم وسوء سلوكهم!

في الصباح الباكر، يبدأ إزعاج من نوع آخر، هو إزعاج الباعة الجائلين، وتجار الخردة، ومن يشترون زيوت الطعام المستعملة، ومن على شاكلتهم.. كل منهم يتصور أن الأهـالي مصابون بالصمم، فيستخدم مكبر صوت كريها وقبيحا، ولا يكتفي بالنداء

مرة واحدة أو اثنتين، ولكنه يكرر النداء مرات كثيرة، وقد يعرب بعضهم عن انتمائه للعصر الحديث فيعيد ويزيد في الحديث عن الحصير البلاستيك الذي خضع للكمبيوتر والأرقام الإلكترونية، ويظل الإزعاج مستمرا حتى يسدل الليل أستاره، بل إن بعضهم لا يتورع- وخاصة إذا كانت البضاعة مغشوشة أو مستعملة- أن ينادي على سلعته ذات السعر الرخيص، والناس توشك على النوم!

هل يمكن أو يستحب أن تعيش في مثل هذا الريف؟ أو تلك القرية؟

معادلة جديدة

إنه لم يعد ريفا ولا قرية، صار نوعا آخر، بعد أن تحول من إمداد المدينة بما تحتاجه من منتجات زراعية وحيوانية وداجنة، إلى مستورد لها! تحدث كثيرون وكتب عديدون حول هذه المعادلة الجديدة..

البيت الريفي الذي كان يضم مكانا للحيوانات والدواجن وخزين الغلال ومنتجات الألبان، وقبل ذلك كله الفرن البلدي الذي يمد الأسرة أو العائلة بالخبز الطري أو الخبز الفلاحي، وتطهى فيه أفضل وجبات الطعام، هذا البيت صار خرسانيا، وأضحى الطريق إلى الحظيرة مبلطا بالسيراميك(!) وتقلصت أعداد الماشية بعد سفر الأبناء (القوى العاملة) إلى الخليج أو غيره، ومن بقي فهو يرتدي

القميص والبنطلون، ولا يفيق إلا قبيل الظهر ليذهب إلى الحقل متثائبا بسبب السهر في الليلة السابقة. الوضع اختلف الآن عن ذي قبل، فالفلاح القديم كان يتحرك إلى حقله في الصباح الباكر بعد صلاة الفجر، يصطحب ماشيته وأغنامه، ويركب حماره إذا كانت المسافة بعيدة، ويستمر حتى الغروب أو ما بعده، ويعود ليجد الفرن البلدي قد أعد له طعاما شهيا ولو لم يكن فيه لحم أو سمك.. ولكن فلاح اليوم يقف في الطابور أمام مخبز التموين بحماره، ليحصل على الأرغفة المقررة.

تراجع الزراعة

لقد تراجعت مهنة الزراعة تراجعا كبيرا لأسباب شتى. لم يعد الفلاحون يحرصون على زراعة المحاصيل المعتادة (القمح، الذرة، الشعير، القطن)، وراحوا يبحثون عن المحاصيل ذات العائد الكبير والأسرع، كما روّج ذات يوم وزير الكنتالوب والفراولة الذي تصور أن تصدير بعض المحاصيل الطارئة سيمنحنا عملة صعبة نشتري بجزء منها القمح والذرة! بالطبع لم يذكر أو يتذكر أن محاصيل الخبز، إن صح التعبير، سلعة استراتيجية، إن لم تكن تحت سيطرتك، فإن من يبيعها يجعلك تحت سيطرته، ويهددك بالجوع وأكل أوراق الشجر إن استطاع. وهي مسألة معروفة لأصغر الدارسين أو الباحثين، ولعل ما نعانيه اليوم بسبب هذه السياسة الفاشلة. لقد

ألغيت الدورة الزراعية، وكانت تلزم الفلاحين بزراعة المحاصيل الأساسية التي توفر الخبز، وتتيح لهم في الوقت نفسه مساحة لا بأس بها لزراعة الخضروات والفاكهة والمحاصيل الأخرى.

بيد أن الخطورة بدأت تعبر عن نفسها حين استبيحت الأرض الخصبة، وتحولت إلى مبان خرسانية كالحة، فأنقصت المساحة الصالحة للزراعة. وقبل ذلك كان يتم تجريفها لتباع ترابها لقمائن الطوب! لا أحد يخبرنا عن تحولات الأرض الزراعية، ماذا أضيف من الأراضي المستصلحة، وماذا نقص من أراضي الوادي الخصبة؟ لا توجد إحصائيات دقيقة، ولا أرقام محددة، ولكن قريتي التي كانت تزرع زمن طفولتي نحو خمسمائة فدان، صارت اليوم تزرع أقل من نصف هذه المساحة!

تضاعفت مساحة المباني في قريتي أكثر من عشر مرات، وتضاعف سكانها بالقدر نفسه. الذين خرجوا إلى الأراضي الجديدة قلة نادرة للغاية، ولكن من يعيشون في القرية لم يتركوا شبرا من الأرض الخلاء أو المزروعة إلا تحول على أيديهم إلى مبان خرسانية كالحة، طرح النهر الذي كان ينتج أفضل المحاصيل لم يبق فيه شبر دون أن يتحول إلى ضحية للطوب والإسمنت، الأجران، أو البيادر، البرك والمستنقعات، الأرض السبخة، حواف الترع والمصارف كلها تحولت إلى مملكة الخرسانة القبيحة، أما الأرض الخصبة فقد ذبحت

على مذبح الطمع والجشع والسمسرة، وساعد على ذلك من سكنوا العاصمتين، وزهدوا في القرية والانتماء إليها، فباعوا أراضيهم أو أوكلوا أمرها إلى سماسرة جشعين سوّقوا لها بأسعار خيالية، وكانت السلطات المحلية والزراعية الضعيفة الفاسدة تحرر محاضر لمن يبنون فيها، فيأتي محامون محترفون في قضايا البناء على الأرض الزراعية ليخرج المتهمون منها مثلما تخرج الشعرة من العجين. وتحدث كما شئت عن الرشاوى، والوساطات والمجاملات، والضحك على السلطات والإزالات الوهمية.. اغتني أناس، وارتفع منحطون بسبب مذبحة الأرض الخصبة، ولكن الوطن/ القرية هي التي خسرت. ذهب الشباب إلى الخارج ليمارسوا أعمالا متدنية، وقلة هي التي تصبر على العمل في الحقول، مع تطور الأدوات الزراعية، ماكينات الري، والحرث، والبذر والحصاد، ولكن من يستعيد الفلاح القديم، أو بمعنى أدق صبر الفلاح وانتظاره لفضل الله؟

حركة التعمير

كانت هناك فرص كبيرة منذ سبعين عاما أو يزيد، لمواجهة الزيادة السكانية بإنشاء مجتمعات موازية أو مماثلة، في الصحاري الواسعة، تقوم على الزراعة المميكنة أو التصنيع المتوسط والبسيط والحرف اليدوية، مع تشجيع من ينتقل إلى هذه المجتمعات بوصفها أولوية قصوى في الدولة، ولكن حركة التعمير سارت بخطا وئيدة لا

تتناسب مع الزيادة السكانية، وانشغلت بعض الحكومات بالاعتماد على الدعاية للتقليل من النسل (حسنين ومحمدين) وأشياء مماثلة، وتخصيص ما يشبه الوزارة لإقناع الريفيات بعدم الإنجاب المبكر، وتوفير وسائل تحديد النسل بصورة مجانية، ولكن دون جدوى! إنها طريقة سلبية في مواجهة المشكلات، تشبه الانسحاب في الحروب أمام الأعداء، ظنا من القادة المعنيين أن ذلك يحمي من الهزيمة الشاملة ولكن ذلك يغري العدو بالمزيد من الاستهانة بالفريسة، ويشجع على مطاردتها، والقضاء عليها.

إن توفير ما ينفق على الدعاية لتحديد النسل أو تنظيمه، وتوجيهه لإقامة مجتمعات جديدة أفضل كثيرا، وسيكون عائده أكبر لصالح الحفاظ على الأرض الزراعية، وإضافة عمران جديد يحقق مزيدا من الفوائد، حين يضع وجودا سكانيا كثيفا في الأراضي الخالية، وخاصة المواضع التي تحدث فيها مواجهات مع الأعداء، إنها مصدّات تعمل على تعثر الجيوش المهاجمة، وتتاح فرصة أكبر للمقاومة العسكرية والشعبية.

الزحام والنظام

ما ينفق على الدعاية بصفة عامة لتجميل وجه الحكومات المتتابعة، يمكن أن يحدث تحولا كبيرا في خدمة الوطن لو اتجه نحو التعمير الحقيقي، ونقل الكثافة السكانية إلى الأراضي الخالية،

وتجارب الأمم الأخرى وخاصة حديثة العهد بالاستقلال والحريات العامة، تشير إلى إمكانية الانتقال من ثقافة الزحام إلى ثقافة النظام.. تأمل مثلا ما جرى في رواندا وموزمبيق.. وهما دولتا فقيرتان فيما يفترض، عانتا من متاعب عديدة بعضها دموي شديد الدموية، ولكنهما تحولتا بالحوار والتشاور أو ما يسمى الديمقراطية وترتيب الأوليات، إلى دول مستقرة مكتفية ذاتيا، منتجة، تقدم خدمات جيدة لمواطنيها. المفارقة أن بعض القوم في بلادنا حين يسمعون ما يتردد عن رواندا وموزمبيق وتقدمهما، يقولون لنا: اذهبوا وعيشوا هناك! وكأنهم يملكون حق تقرير مصائرنا بالطريقة التي تعجبهم وتروق لهم، وليس الطريقة التي ترضي الأكثرية الساحقة الفاعلة المنتجة!

رحلات خاطفة

غمرتني مشاعر متضاربة لأفارق الوطن وأرحل إلى بلد آخر أشعر فيه بالوجود الإنساني الذي يجعلني أتقبل الحياة أو ما تبقى منها.. بيد أن المتاعب الصحية التي أخذت تزحف مع بداية القرن الجديد، واشتدت مع منتصف العقد الأول، أقعدتني عن فكرة الرحيل. اكتفيت بالذهاب إلى مؤتمر أو ندوة تعقد في عاصمة خارجية أو عربية، أقضي أياما أعود بعدها لأواصل الحياة الباردة والعمل بطريقة وأخرى. في عام 2007 أو السنة التالية كنت

في إسطنبول لحضور أحد المؤتمرات، وصعدنا للإفطار في مطعم خشبي مرتفع بالقرب من مسجد «أبي أيوب» الأنصاري رضي الله عنه، وعقب الإفطار رحت أهبط السلم ذي الدرجات الخشبية، ولم أدر إلا وساقي اليمنى تبدو وكأنها كسرت نصفين. شعرت بألم حاد استمر حتى العودة إلى البلاد. فسَدتْ الرحلة والمؤتمر. كان هناك طبيب مرافق لأعضاء المؤتمر حاول إسعافي دون جدوى، نقلني إلى مستشفى تحمل اسم رئيس الوزراء الراحل تورغوت أوزال على ما أذكر. أخبرني الطبيب أن الأمر يستدعي إجراء جراحة لتصفية ماء في المفصل، ويستغرق ذلك بعض الوقت، ونصح بإجراء العملية في مصر لأن وقتي الضيق في اسطنبول لن يكفي، وأضاف أنه ينصح بعدم إجراء العملية لأن الماء سيتكون ثانية بعد العملية، والأفضل أن يكون هناك علاج طويل المدى لبناء خلايا نسيجية شريطة الالتزام من جانبي بمتابعة العلاج، والحركة المحسوبة، والصلاة على كرسي..

العصا..

في طنطا عالجني زميل متخصص في العظام كان وكيلا لكلية الطب، وبدأ علاجه بالتركيز على إزالة الألم واستعادة الأمل. وصف لي ما يسمى بالكمادة الزئبقية مع أدوية أخرى، ثم أراجعه، وهكذا أمضيت شهورا، تحت الحركة المحسوبة والاتكاء لأول مرة على عصا،

كنت اشتريتها فور إصابتي من أمام مسجد أبي أيوب في اسطنبول، وحين خرجت من منزلي لأول مرة لأؤدي الصلاة في المسجد، سمعت بعض النسوة يتحاورن بصوت خفيض بعض الشيء:

«يا عيني يا أختي. الدنيا ليس لها أمان»!

كان الحوار يشير بشيء من التحسّر على ما أصابني، ولكني ضحكت في سرّي، وحمدت الله على حالي، فهناك من هم أصغر سنا مني، وأحوالهم أكثر بؤسا. كنت جاوزت السبعين، وأراني أنهض من فراشي وحدي، وأذهب إلى الحمام- أعزكم الله- وحدي، هناك من لا يستطيع أن يفارق مضجعه إلا بمساعدة الآخرين، وأثقل شيء على النفس وأنت في مثل هذه السن أن تحتاج إلى غيرك ليساعدك، ولو كان من أقرب المقربين إليك.

كانت العصا في بداية الأمر مستغربة بالنسبة لي وللآخرين، ثم تحولت إلى مسألة طبيعية، حين أخطو إلى المسجد، أو أذهب إلى المدينة لأمر ما، أو الجامعة لإلقاء محاضرة أو عقد اختبار.

بيد أن الأمور تفاقمت، حين ظهرت متاعب صحية أخرى، كان بعضها متجذرا، ومع تقدم العمر ووهن الصحة أخذ في التعبير عن نفسه بشيء من الألم الشديد. لم أقصر في طلب العلاج، ولم أغفل ما يسمى بالطب الشعبي أو ما يطلق عليه الوصفات البلدية، فضلا

عن تنفيذ بعض النصائح الطبية المهمة، وهي السير نصف ساعة يوميا، وقد وجدت حرجا لتنفيذ هذه النصيحة في النهار، فأخرج في بعض الأيام ليلا حيث لا يراني إلا قلة من الناس وأنا أمشي الهوينى.. ورأيت أن المشي وكان رياضتي المفضلة قديما يسهم في تنشيط الجسم إلى حد ما، ويساعد على التخلص من بعض الزوائد الشحمية أو المائية.

الوباء..

حين حط وباء الكورونا بالبلاد كنت من أوائل الذين ذهبوا لتلقي المصل الواقي، كان التطعيم في الدور الثالث بالمستشفى في المدينة المجاورة، وكان صعود السلم أمرا مرهقا ومزعجا، ومع أن هناك مصعدا يصل إلى مكان التطعيم، إلا أن السادة الموظفين، لا يعنيهم أمر المرضى من أمثالي، فيغلقون المصعد في الثانية ظهرا موعد انتهاء العمل الرسمي لهم، ويذهبون إلى بيوتهم وعلى المضطر أن يركب الصعب. سألت نفسي عن العبقري الذي اختار مكانا علويا للتطعيم، وهو يعلم أن معظم من يتلقون المصل من كبار السن الذين وهنت عظامهم، وفي الوقت نفسه لا يترك عاملا يتابع المصعد وتشغيله؟

الموظفون في بلادنا لا يعرفون الرحمة ولا الإنسانية، ولا أداء الواجب بإخلاص. صحيح هناك قلة من أولاد الناس الطيبين،

لديهم مروءة ورغبة في خدمة الناس لوجه الله، ولكن الأكثرية الساحقة بلا قلب، الواحد منهم يشعرك أن بينه وبين المواطن صاحب الحاجة أو المصلحة عداوة مزمنة، ويجب أن يهزمه بالضربة القضية، فيقول له:

موضوعك ليس عندي، أو لدى موظف غائب، أو تعال بعد أسبوع، أو هذا الورق لا يصلح، ولا يوضح له ما الذي يصلح أولا يصلح. يطلب منه أن يأتي بورقة، وحين يأتي بها، يخبره أنه يريد ورقة أخرى، وحين يقول له المواطن لِمَ لمْ تخبرني في المرة السابقة، فيرتفع صوته الفرعوني، ويحدث اشتباك. الموظف يتناول إفطاره الذي يصنعه على مزاجه في المكتب، ولا يريد أن ينغص عليه أحد لذة ما يصنع. وبالطبع لا رئيسه ولا مسئول المكان يملكان إزاء الموظف شيئا، فهو يتملقهما، ويجيد الانحناء أمامهما، و»طلبات سيادتك أوامر يا افندم»، وهكذا تمتلئ نفوسهم نشوة ونرجسية ويرضيان عن الموظف الذي يشكو منه الناس لطوب الأرض. لماذا لا يراعي الموظف ظروف الآخرين؟ وأنه يمكن أن يكون في مكانهم في يوم ما، ويحتاج لحل مشكلة؟

لو يعلم الموظف أنه سيحاسب جيدا، وأنه يمكن أن يتغير بمن يحتاجون إلى العمل والمرتب، لتغيرت أحوال كثيرة، ولاختفت الرشوة والإكرامية والحلاوة، وغيرها. هناك كثير من المصالح

الحكومية يذوق فيها المواطن الأمرين، مع ما يقال عن الميكنة، وعصر الكمبيوتر، والرقمنة، وغيرها من المصطلحات التي لا تعني شيئا ذا بال!

البديل المفيد

أعلم أن آلاف الشباب العاطل أو المتعطل الذي يملأ كراسي المقاهي والأرصفة، يمكن بشيء من التدريب والتوجيه أن يكون البديل المفيد، وخاصة إذا عرف أن التهاون في خدمة الناس سيكون العودة إلى كراسي المقاهي والأرصفة مرة أخرى!

في التطعيم الثاني ضد الكورونا بعد شهور ذهبت مع نجلي إلى المكان الذي تلقيت فيه الجرعة ألأولى، فإذا به كتل من النساء والرجال وأكثريتهم طاعنة في السن، وتسد السلم الضيق الذي يؤدى إلى مكان التطعيم. في منتصف السلم وجدت نفسي مرهقا ومختنقا، وعدت مع نجلي من حيث أتيت. بعد نحو أسبوع استطعنا التحدث إلى مسئول، ساعد في تناول الجرعة الثانية، أعطانا موعدا في الصباح الباكر، وانتظرنا حوالي ساعة ونصف في مكان معقول، وكان هناك زحام رهيب نشأ عن قرار خاص بالمسافرين للعمل في الخارج يلزمهم بالتطعيم وحمل شهادة معتمدة من الجهات المختصة، وفي النهاية نزلت ممرضة إلى قاعة أرضية، وقامت بالتطعيم لعدد من أصحاب الأمراض المزمنة، وكنت من بينهم.

وللأسف فوجئت بعد شهور بإصابتي بالكورونا اللعينة، في البداية تصورتها حساسية صدر تأتي مع أواخر الشتاء من كل عام، وتناولت العلاج، ولكن المسألة تفاقمت، وفي أول أيام رمضان ذهبت إلى طبيب متخصص، وبعد أشعة وتحليلات، ومسحة، وغير ذلك طلب أن أذهب إلى مستشفى في مركز آخر، لأحقن بحقنة تتكلف أكثر من ست وثلاثين ألف جنيه، ولكنه بحكم وظيفته الرفيعة في وزارة الصحة سيوصيهم أن تكون مجانية بالنسبة لي!

ولأني ندمت على تناول التطعيم أساسا، فقد أشفقت من تناول هذه الحقنة التي أشار بها الطبيب. وقام نجلي بعرض الأمر على أحد أطباء الأشعة، شقيق لزميل لي في القسم العلمي بالجامعة، ثم طبيبة صديقة تقيم في إسبانيا، فأوصت بعدم تلقي الحقنة، واقترحت بعض الأدوية الفعالة، وتنحية بعض الأدوية التي وصفها المعالج. كانت محنة تحولت إلى منحة بفضل الله، فقد أوشكت على الموت، ولكن الله أنجاني، وبدأت الأمور في التحسن بعد نظام غذائي وسلوكي فرضته الإصابة.. بعد فترة من العلاج، شعرت بمضاعفات معوية، لم تُجْدِ معها علاجات متنوعة، والحمد لله أنها أخذت تتراجع في الفترة الأخيرة إلى حد كبير بعد اتباع نظام غذائي أكثر صرامة، يتجنب بعض الأطعمة، ويتناول بعضها الآخر بكميات محدودة، وفي أوقات معينة، مع الالتزام برياضة المشي اليومي، ولو داخل البيت.

ظلم ما

الطريف أن أحدهم لم يصدق أني اصبت بالكورونا، وكان يطلب شهادتي في أمر ما، وزعم أن ذلك لم يكن صحيحا واعتمد على كلام بعض من لا يرقبون عهدا ولا ذمة، وترتب على ذلك ظلم ما، وهو ما اضطرني إلى تقديم الأوراق الخاصة بالإصابة والعلاج لرفع هذا الظلم!

ويبدو أن اللقاح الذي تطعمت به كان محفزا على الإصابة بالمرض، بدلا من منعه، فقد تكرر الأمر مع أحد أبنائي، وقد تطعم باللقاح نفسه الذي تلقيته، وكان يعمل في مكان بعيد عن العمران ولا توجد به خدمة صحية، وقد أشرف على الموت لولا لطف الله، فقد اتصل بشقيقه وهو لا يكاد يبين ليخبره أنه في مرحلة حرجة طلبت أن يذهب إليه مع بعض الأصدقاء على الفور، وهناك بذلوا جهدهم لنقله إلى أقرب مدينة، وساعدهم أحد الصيادلة حتى استردّ المريض وعيه، ومن ثم نقلوه إلى أحد المستشفيات ليتم علاجه على يد بعض الأطباء، والحمد لله على كل حال!

حالتي الصحية الآن ليست بالسوء الكامل، فأنا أواظب على أداء صلاة الفجر في الزاوية القريبة من البيت، لا أستطيع صلاة الفرائض الأخرى في المسجد بسبب مضاعفات الكورونا، في صلاة

الفجر يمكن تفادي الحرج، حيث تتم في وقت قصير نسبيا، أتوضأ في البيت قبل الصلاة مباشرة، ثم أمضي إلى الزاوية، والصلاة توشك أن تقام، وأنصرف بعد أدائها في الحال، الصلوات الأخرى، تستغرق وقتا أطول، وتضم عددا أكبر من المصلين، ويصعب تفادي الحرج في النهار أمام الناس، وكم أمنّى نفسي أن تتاح لي فرصة صلاة الفرائض كلها في المسجد، ولكن لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

الأمراض المتوطنة

في القرية تغيّرات واضحة، وخاصة في المجال الصحي، لدينا وحدة صحية أقيمت في الستينيات، وافتتحها محافظ شهير كان اسمه «وجيه أباظة» من رجال الصف الثاني في انقلاب 1952، وكان بحكم هذا الانتماء قادرا على تنفيذ مشروعات عديدة في المحافظة(البحيرة)، وما زالت بعض المشروعات التي أسسها تذكر به.

المجموعة الصحية كانت قاصرة على معالجة ما كان يسمى بالأمراض المتوطنة (الانكلستوما والبلهارسيا) وإسعاف المصابين بالإسعافات الأولية، وإجراء تطعيم المواليد ضد الأمراض المعروفة المعدية، قيل لي إن الحكومة أعادت بناء الوحدة في السنوات القليلة الماضية، وتوفر فيها علاجا للأسنان، وربما بعض الأمراض الأخرى. كنا من قبل نعرف الطبيب الذي يعمل فيها وأسماء العاملين الآخرين لأن معظمهم كان من القرية أو القرى المجاورة.

الآن لا أعرف أحدا هناك لأني لم أدخلها منذ عقود، ولعل آخر مرة كانت لتطعيم أحد أطفالي. وقفت بسيارتي خارجها وتولى أحدهم القيام بالمهمة.

هناك الآن عدد كبير من الصيدليات في أرجاء القرية، وبعضها يقوم بخدمات عديدة شبه إسعافية وخاصة للفقراء، وافتتحت عيادات خاصة لأطباء وطبيبات من الشباب في تخصصات مختلفة: الباطنة، النساء والولادة، الأسنان، وهذا بلا ريب يوفر خدمة للناس، وإن لم تكن الخدمة كاملة، وعلى كل حال، فالطبيب يرشد المريض إلى من يتولى الفحص الدقيق، ووصف العلاج المطلوب في المدينة أو العاصمة.

يوجد في القرية منذ خمسة عشر عاما تقريبا، مستوصف مبني على أحدث طراز، وفيه أجهزة حديثة، وأنشأته بعض التبرعات من سيدة محسنة في دولة شقيقة، والمستوصف يضم حضانة للأطفال، وغرفا للعناية المركزية، ومختبرا للتحاليل، وهناك قسم للجراحة تجري فيه بعض الجراحات. كان المفترض أن تكون الخدمة مجانية أو شبه مجانية، وهو ما جرى إلى حد ما في البداية، ثم تحول إلى مؤسسة استثمارية، وأسعاره تقارب الأسعار الخارجية، ويفسرون ذلك بأن هناك فريقا من الأطباء والفنيين والممرضين والعمال يحتاجون إلى أجور، ولذلك لا بد من تقديم الثمن مقابل الخدمة. هناك إقبال

ملحوظ على حضانات الأطفال من القرى والمناطق المجاورة لرخص أجرها نسبيا، والمستوصف في كل الأحـوال ضرورة علاجية، يلجأ إليه الناس في حالة الإسعاف، ويوفر عملية الانتقال إلى مراكز العلاج في المدن المجاورة.

صرافة آلية

في المجال الزراعي حولت الحكومة بنك التسليف الزراعي الذي كان يقرض الفلاحين بفوائد محدودة إلى ما يسمى البنك الزراعي، ولا فارق بينه وبين البنوك الأخرى إلا في الاسم، وهو مزوّد بصرافة آلية تسعف أصحاب الحسابات المودعة بالبنك أو البنوك الأخرى، لسحب ما يحتاجونه من أموال، في أي وقت من النهار أو الليل مقابل عمولة. ويقف البنك شامخا خلف الجمعية الزراعية في بناء حديث تضيئه الأجهزة الإلكترونية والكهربية، ويمنح موظفيه ميزات أفضل من نظرائهم في المجالات الأخرى بالقرية، ويسمح بالاقتراض المعتمد على الفائدة المركبة، مثله مثل أي بنك آخر، ويلجأ إليه بعضهم للاقتراض فيقدم مشروعات وهمية تسوغ طلبه، وعندما يتعسر في السداد تكون المحكمة وربما السجن!

وقد افتتح البنك الأهلي المصري قبل شهور صرافة آلية مستقلة في القرية، تتيح لمن يتعاملون معه أو مع غيره من البنوك سحب ما يحتاجون من أرصدتهم، وتخصم عمولة إذا كان الساحب

يضع أمواله في بنك آخر، وللأسف الشديد، فقد رأيت في جولة التريض الليلي تعطل الصرافة، وعرفت من بعض القريبين منها أن قطعان الشباب الذي يركضون في جوف الليل عبر شوارع القرية وحواريها، قد نزعوا بعض الأسلاك أو ما شابه، فتوقف عملها أكثر من شهر، وجاءت لجنة مختصة حاولت إصلاح الآلة، ولا أدري هل أصلحوها أو لم يتمكنوا من ذلك..

الإنسان والآلة

بالطبع الأمر يثير شجنا عظيما إزاء قضية التغير ولا أقول التطور حين يتم التركيز على تغيير الآلة دون الإنسان. الإنسان الذي يرتع ويلعب دون أن يتربى أو يتعلم جيدا ولا يعرف قيمة الأشياء والأرواح، لا يحقق عائدا له قيمة بالنسبة للتقدم الحضاري إن لم يكن عبئا عليه.. في بلاد بعيدة يعلمون أبناءهم ألا يقطعوا وردة أو زهرة أو شجرة، الواقع في بلانا مختلف. هناك من يدمن قطع الأشجار، ومن يعلن عداءه للخضرة والورود والأزهار. كانت هناك بقع صغيرة خضراء زرعت حول بعض مؤسسات القرية (المدرسة، المعهد الديني، المتحف الزراعي..) ولكنها تعرضت للعدوان من الأطفال أو الكبار، أو تركت للإهمال والنسيان، فصوّحت وجفت، وصارت مرمى للفضلات أو بقايا الهدم والردم..

في زمني البعيد كانوا يسلموننا كراسات الكتابة والحساب

المجانية وعلى ظهرها تعليمات وتوجيهات وإرشادات تحض على النظافة والصداقة واحترام الوالدين وكبار السن والحفاظ على الممتلكات العامة، وعدم التعرض لما يستخدمه الناس من أدوات أو وسائل... وكانت هذه التعليمات تنطبع في الأذهان والعقول. اليوم فإن القطعان التي لا تجد من يعلمها إلا في السيبر أو الدرس الخصوصي، لا يمكن أن تحافظ على شيء يفيد منه المجتمع، بل يتحولون إلى عناصر تخريب وتحطيم، حيث لا فكر يملأ وجدانهم أو أفئدتهم أو أرواحهم. ولا إيمان يعصمهم من الزيغ والانحراف. إذا امتلأت الأرواح والقلوب والعقول بالفكر والعقيدة، لن يحدث تخريب أو تحطيم، الذي يجري الآن تفريغ للأجيال من كل سلوك نظيف منتج، والفضل للدراما والسينما، وبرامج الشاشة الصغيرة، وضيوفها من الفتيات المسترجلات، والشباب المخنث البلطجي الذي يرتدي سلاسل على الصدر، وأساور على اليدين، وبجوارها الحظاظات وفقا لشعارات الماسون!

البريد المصري الجميل

في القرية أقيم مبنى جميل للبريد المصري، عاصرت في زمني عم سيد البوسطجي، زيتوني الملامح، ضعيف البنية وهو يركب دراجته المتهالكة، ووراءه حقيبة قديمة من الجلد أو قماش الخيام، وفيها الرسائل العادية والمسجلة ودفتر التسجيلات والطوابع،

ويجمعنا الشغف بمتابعته على عتبة المسجد الحجرية. في حوالي التاسعة صباحا يأتي، وما إن يفتح الحقيبة ويبدأ في تلاوة الأسماء حتى يتسلم الموجودون ما يخص أقرب الناس إليهم، ويوقع بعضهم باستلام المسجّلات نيابة عن أصحابها، أما ما كان يخص جدتي فلا يسلّمه إلا إليها، فتعطيه الختم ليصرف به حوالتها التي كانت في حدود خمسين قرشا تقريبا، ويعود بالمبلغ في اليوم التالي، ويأخذ إكراميته ويتناول الشاي، فقد وفّر عليها مشورا صعبا إلى المدينة من أجل صرف الحوالة.

مكتب البريد المصري الجميل في قريتنا تحول اليوم إلى شيء آخر لا يخدم الرسائل أبدا، لا العادية أو المسجلة! إنه مشغول بالرقمنة، وصار بنكا خاصا بأصحاب المعاشات، وكنت أعلم أنه يتقاضى ثلاثة جنيهات عن المعاش الواحد، بدءا من معاش السادات حتى معاشات الموظفين والعمال، ثم إن لديه اليوم نظام تحويل إلكتروني، يتقاضى بموجبه عشرة جنيهات عن كل ألف جنيه في الإرسال، ويتقاضى نظيره المُسْتقبِل رسما أقل عند الاستلام، ثم إن للبريد المصري الجميل أرقام حسابات تطورت من أيام دفتر التوفير، فتضع أموالا أو تسحبها. البريد المصري الجميل له أيضا صرافة آلية تتقاضى عمولة، لقد صار بنكا مثل بقية البنوك ولكنه لا يقرض فيما أظن.

منظر بائس

المشهد المثير للأسى هو جلوس العجائز أصحاب المعاشات بأعداد كبيرة على الأرض يوم الصرف، في منظر بائس، حتى يظفروا بالمعاش الضئيل وينصرفوا بعد ساعات، ويا ويلهم إذا «وقعت الشبكة» أي تعطل نظام الحاسوب الخاص بالصرف، فقد ينتظرون حتى آخر النهار ويعودون إلى بيوتهم وأيديهم خالية من النقود التي ينتظرونها على أحر من الجمر!

تسمع أخبارا وأقوالا عن تخصيص موظفين لتوصيل المعاشات إلى أصحابها في بيوتهم وخاصة الذين تصعب حركتهم، ولكن هذا الكلام لا وجود له في الواقع الحقيقي، هو استهلاك دعائي يتم الضحك به على السذج!

أين الرسائل في البريد المصري الجميل؟ لا مكان لها. يصعب أن ترسل خطابا عاديا ويصل إلى صاحبه، وإذا أردت أن تسجل خطابا لتضمن وصوله، فاعلم أن المقابل كبير، مع العلم أن الخطاب قد لا يصل في معظم الأحوال أيضا. أما إذا أردت أن ترسل خطابا إلى بلد شقيق، فلك الخيار بين التسجيل العادي الذي يزيد أو يقرب من مائتي جنيه، وقد يصل في شهر أو أكثر إذا وصل. أو البريد السريع وعليك أن تدفع قرابة تسعمائة جنيه ليصل في أسبوع إذا عبر

الحدود ووصل، أو لم يرتد إليك بحجة خائبة وهي عدم التعرف على العنوان! وفي الوقت نفسه يتم توثيق الرسالة كأنك داخل إلى مؤسسة أمنية دولية: الاسم والرقم القومي، والعنوان في العمل، والمنزل، ورقم الهاتف المحمول والأرضي، ورقم أقرب الأقارب، والغرض من الرسالة... يا ألطاف الله!

قال لي أحد الأصدقاء:

- نحن نتعامل عبر النت الآن: الرسائل والوثائق، والموضوعات، والكتب البي دي إف، والإيصالات المصورة، وغير ذلك، يصل عبر الإيميل أو الواتس، وأنت تحدثنا عن الخطابات البريدية وتجلياتها المتخلفة؟

قلت لصديقي:

- بالتأكيد فإني أستعمل الإيميل والواتس، وأرسل من خلالهما ما أريد، ولكن يا عزيزي، هناك وثائق ورقية أصلية تطلبها بعض الجهات، ولا مفر من استخدام البريد المصري أو الشركات الخاصة التي تعمل في بعض المدن الكبرى، ولا توجد مكاتب لها في مدن الأرياف.

وأضفت:

- في بلاد أخرى تصل بدون تسجيل بطاقة الدعوة للغداء أو العشاء أو لحضور مناسبة ما في أقل من ست ساعات. ويستخدم

البريد هناك القطارات أو السيارات العامة التي تلتزم في مواعيدها بالدقيقة والثانية.

ضحك صاحبي، وقال:

- ألم تسمع عن إعلانات السكة الحديد التي تعلن أن زمن التأخير يصل إلى 90 دقيقة، وعدّوا ذلك الإعلان أمرا جديدا يصب في خانة التطور؟

وزاد صاحبي:

- هل يحتاج ضبط المواعيد إلى عملات صعبة، وخبراء من بلاد واق الواق؟

قلت له:

- يا أخي الكريم، إن البريد المصري الجميل كان يقدم إعلانا في رمضان الماضي، يقوم فيه من يسمى مطربا بالترويج لإنجازات البريد المصري وتطوره، هل تعرف قيمة هذا الإعلان؟

رد بسرعة:

- لا.

أجبته قائلا:

- إن الصحف والمواقع ذكرت أن قيمة الإعلان على شاشة

التلفزيون بلغت سبعة عشر مليونا من الجنيهات، ومع ذلك فالرسائل لا تصل في معظم الأحيان!

ابتسم صاحبي وتساءل ساخرا:

– سبعة عشر مليونا في إعلان؟ لا بد أن رئيس البريد يسعى لتجديد خدمته، فهو يعلن أنه حقق فائضا عظيما من دم اصحاب المعاشات الغلابة، وليس خدمة أصحاب الرسائل!

تركني صاحبي ومضى، وتمنيت أن يعود البريد المصري إلى عصر عم «سيد البوسطجي»، لأنه سيكون أكثر رحمة بأصحاب المعاشات، ولن يتخلى عن دوره الأساسي وهو توصيل الرسائل.

هدم المدرسة

في القرية الآن تعليم أزهري، وتعليم عام. التعليم الأزهري يشمل معهد ابتدائيا أقيم من أيام الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر زمن عبور المصريين في رمضان إلى ضفة القناة الشرقية وتحطيم خط بارليف الحصين الذي أقامه اليهود الغزاة المحتلون. وقبل خمسة عشر عاما تقريبا أقيم معهدان: إعـدادي وثانوي للفتيات، ومثلهما للفتيان.

أما التعليم العام فكانت هناك مدرستان ابتدائيتان، أ، ب، ومدرسة إعدادية، ولكن عبقريا، رأي فبل نحو عشر سنوات أن

المدرسة «أ» يجب هدمها، وإعادة بنائها. وفي الوقت نفسه ينضم تلاميذها إلى المدرسة «ب»، ويكون هناك مدرسة صباحية، وأخرى مسائية.

كانت المدرسة التي تم هدمها من أفضل الأبنية الرسمية في المحافظة، وقد نهضت على الطراز الأميركي، توفر إضاءة كاملة في الفصول، وحولها حديقة ومزرعة، وبها ملعب كبير، ومكان لقاعات الرسم والتشكيل الفني، ومنحل واسع يستوعب عشرات الخلايا، وقد انتقلت إليها مع زملائي في المرحلة الابتدائية حوالي عام 1955م، وكنا نقيم بها في الصيف ناديا، أو مركزا للشباب نمارس فيه طوال الإجازة أنشطة رياضية وثقافية وفنية، ونقيم مسابقات في كرة القدم مع القرى المجاورة، ونختم بحفل مسرحي توزع فيه الجوائز على الفائقين، وكانت جوائز رمزية، ولكن نكهتها أحلى وأجمل من أي جائزة أخرى، لأنها كانت صادقة ومعبرة، ومن جهد طلاب مخلصين.

لا أدري لماذا هدمت المدرسة الجميلة، التي كان يمكنها أن تظل في الخدمة لمدة نصف قرن قادم على الأقل؟ ثم لا أدري لماذا لم تنهض ثانية مع تدخلات كثيرة من نواب ومسئولين، واستغاثات من الأهالي وأولياء الأمور!

أين الجهة المسئولة مباشرة عن كل شيء في القرية بحكم قانون الإدارة المحلية، وهي مجلس القرية؟

جهاز فاشل

لا أعلم أين. ولكن الذي أتيقن منه أن الإدارة المحلية جهاز فاشل، ولا أقول فاسدا كما وصفه زكريا عزمي رئيس ديوان الرئاسة على عهد الرئيس الأسبق حسني مبارك. أعتقد أن هذا النظام يجب أن يتغير، ويعود نظام البلديات التي تقوم على الانتخاب الحر النزيه، لنواب محليين بدءا من عضو البلدية في القرية مرورا برئيس البلدية في المدينة، حتى رئيس البلدية في المحافظة (المحافظ). يختارهم الناس بمحض إرادتهم لمدة ثلاث سنوات تتجدد في انتخابات حرة نزيهة لمن يثبت وجوده وصلاحيته، كما نرى في البلاد المتقدمة، وأظن أن التكاليف والميزانيات ستنخفض إلى حد كبير، ولن يحتاج الأمر إلى زيارات كثيرة، ومتابعات متكررة من المسئولين الكبار للأحياء والمدن والقرى، تتكلف أموالا كثيرة تذهب في الهواء، ولنتأمل مثلا زيارة محافظ إلى إحدى القرى، وعدد السيارات التي ترافق موكبه، وكمية الوقود التي تستهلكها سيارات الزيارة أو المتابعة، فضلا عن ضياع وقت المحافظ ومن معه سدى، وكان يمكن توفيره للنظر في أمور أهم وحل مشكلات ملحة!

إعادة نظام البلديات وتحديد صلاحياتها بدقة، سيوفر كثيرا من المتاعب والأموال، وسيعرف عضو البلدية دوره والمشكلات التي ينبغي معالجتها وحلها، ويجعل للناس حق الرقابة والمتابعة، ثم معاقبة الفاشل من أعضاء البلدية بعدم انتخابه مرة أخرى.

تغيرات ريفية

لقد رصفت طرق القرية، وأضيئت بالكهرباء في السبعينيات، وأقيمت منذ سنوات قليلة محطة لتنقية مياه الشرب يقال إنها مخصصة للقرى المجاورة أما قريتنا فتابعة لشبراخيت! و قبل ذلك غطتها شبكة الهاتف الأرضي، وامتلأت أسطح البيوت وشرفاتها بأطباق اللاقط التلفزيوني، وصار النت أو الشبكة الضوئية وسيلة اتصال وخاصة مع الأبناء المغتربين، ومصدر معلومات سواء على أجهزة الحاسوب أو أجهزة المحمول، وانتهى عصر القوارب أو المراكب التي كانت وسيلة مواصلات رئيسية بيننا وبين المدينة، وافتتحت عشرات المحلات للسلع المختلفة بدءا من الخضروات والبقالة حتى الأجهزة الكهربية والأثاث، وأنشئت محاجر لتزويد المباني بالرمل والزلط، ومخازن لبيع حديد التسليح والإسمنت، والرخام، ونمت بعض الورش لإصلاح السيارات والتكاتك، والأدوات المنزلية، داخل الكتلة السكنية، وبعضها يمارس نوعا من الانحطاط والفجور ولا مبالغة، فحين لا تستطيع النوم والراحة في

بيتك وصوت الشنيور والصاروخ والمطارق، تدق بوحشية، وتخبط ليل نهار، وأصحابها غارقون في السفالة والبذاءة، لا يراعون ظروف الناس ولا أحوالهم، فهذا تخلف مريع! وهناك محلات لنفخ عجلات الكاوتش وما يشبه المطاعم وشوايات الدجاج والسمك، واختفت محلات بيع الأقمشة، ولم يبق إلا أثر منها لبيع الأكفان ومستلزمات دفن الموتى، وحلت مكانها محلات بيع الملابس الجاهزة، وكثير منها مما يعرف بالمستورد المستعمل «البالة»، فالفقر يستوعب ما يتاح له، وقد أفاد بعض الأهالي من الشبكة الضوئية (النت) في الدعاية أو الإعلان عن بيع بعض المخبوزات المنزلية والسلع الغذائية الريفية..

سيولة القيم

القرية تغيرت، والإنسان فيها تغير، وتغيره ليس إلى الأفضل، لقد ضاقت القرية بأهلها بعد سيولة القيم، والتوجه نحو المال أو المادة، ولكنهم لا يجدون مفرا من منازعة الحياة بطريقة وأخرى والاعتماد على المال وسيلة بقاء واستمرار وتفوق، دون التفات إلى ما يجري بسبب السيولة من ممارسات غير طيبة وانحرافات سلوكية لم يكن للناس بها عهد من قبل، وإن وجدت قبل ذلك فقد كانت محدودة ونادرة، ولكن منهج الغاية تبرر الوسيلة صار متفشيا، فقلّت البركة، واختفى الرضا، وعمّ البلاء الذي يحاولون ستره بأغطية مزيفة..

الطاقة الإيجابية

ومع ذلك فبذرة الخير ما زالت موجودة، وإن كانت تحركها قلة من الطيبين، فما إن ينادي المنادي عبر مكبرات الصوت بالمساجد عن حالة تحتاج إلى تبرع بالدم، أو إغاثة ملهوف، أو نجدة مصابين في حادث مروري أو نحوه، فإن كثيرين يبادرون إلى الإسهام في التبرع والمشاركة، والأمر كذلك في إقامة بعض البيوت المتداعية، واليتامى اللاتي يحتجن إلى تجهيز من أجل العرس، وكذلك المرضى بأمراض مزمنة، مثل الفشل الكلوي والسرطان والشلل وغيره.. هناك خير، «والخير في وفي أمتي إلى يوم الدين» كما قال الصادق الأمين ﷺ.

نتمنى أن تكون البذرة شجرة، تشمل الناس جميعا، تنزع منهم الحسد والحقد والطمع والجشع والعدوان على الحق العام والرغبة في الأذى والتبجح والاستعلاء بغير حق.. نأمل أن تتحول الطاقة السلبية إلى طاقة إيجابية، تعمل وتبذل وتعطي وترضى وتمنح وتقبل وتغفر وتتسامح وتتعاون وتتشارك.

قوم موسى

وفي كل الأحوال لا يجد المرء بدا من حمد الله سبحانه على ما يعطي، ومهما كانت الابتلاءات قاسية ومؤلمة في النفس أو الأهل أو الوطن، فالواجب تحملها والصبر عليها، ومحاولة تجاوزها، ولعلي

أتذكر هنا ما قاله موسى عليه السلام لقومه حين اشتدت عليهم المتاعب والمصاعب:

«قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ. وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» (الأعراف: 128 -130).

كان فرعون قد توعد السحرة الذين آمنوا برب موسى، رب العالمين، بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ثم تصليبهم أجمعين، ثم تساءل قَوْمُ فِرْعَوْنَ، وكأنه لم يكفهم ما أنزله فرعون بالسحرة الذين آمنوا: أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ؟ فأجابهم متوعدا المؤمنين من أتباع موسى: «قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ»، (الأعراف: 127).

فـأوصاهم مُوسَى وقد رآهم ضعفاء لا يقدرون على شيء، ولا طاقة لهم بالمقاومة، أن يستعينوا بالله، ويعتمدوا عليه، ويثقوا فيه، ويصبروا على البلاء، وينتظروا الفرج فحكم الأَرْضَ للَّهِ وليس لفرعون ولا لقومه حتى يتحكموا فيها، وهو يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أي: يداولها بين الناس على حسب مشيئته وحكمته، والعاقبة للمتقين.

وحين قَالُوا لموسى أُوذِينَا بقتل أبنائنا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا برسالة الله، حيث قتل فرعون أبناءهم الذكور، وَمِن بَعْدِ مَا جِئتنا، حين أسلم السحرة وتجديد قراره بقتل الأبناء واستحياء النساء، قَالَ لهم موسى: «عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تعملون»، والاستخلاف في الأرض هو التمكين والتدبير في شئونها، والنظر (كيف تعملون): هل تشكرون أم تكفرون؟

وقد أنجز الله وعده في الوقت الذي قدره سبحانه وتعالى، وعاقب فرعون ومن معه، وأخذ قومه بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ يعني الجوع والقحط وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ، أي: إن الثمار لا تخرج كما كانت تخرج في مجاري العادات بل يصيبها من الآفات التي تنقصها وتضعفها، ولعل ذلك يذكرهم بقدرة الله فيعودون إليه ويرجعون مؤمنين تائبين.(ينظر مثلا: تفسير الطبري، وتفسير السعدي).

الصبر على الابتلاء والثقة في الله والإيمان بنصرته في الموعد المقدور، يجعل المبتلى في أمان وحصانة إلهية، لا تزعزعه الهواجس ولا المخاوف، ولا تهزه مؤامرات الدنيا ولو اجتمعت. المهم بعد ذلك حمد واهب النعم وشكر مقدر الأقدار.

تمنيت أن أغادر القرية، وأعيش في مكان يخلو مما يعكر الصفو، ولكني وقد أزف الرحيل، أتحمّل ما بقي من متاعب خاصة ومصاعب عامة، وأفوض أمري إلى الله.

2 - ثقافة الإمتاع والمؤانسة!

شاقني الحديث عن السنوات التي طويت بعد العام الخامس عشر من الألفية الثانية. جرت في النهر مياه كثيرة، وتقدم بي العمر حتى قاربت على نهاية السابعة والسبعين، والاستعداد للرحيل، والسفر إلى عالم الرحمة والخلود..

في لحظات الضعف والألم تتكشف أمور كانت غامضة ومجهولة. تعودت أن أسرع في حياتي، وأحرص على الإفادة من الوقت إلى أقصى حد، لدرجة إهمال الفسح والزيارات والمصايف وأوقات اللهو المباح، لإنجاز قراءاتي أو كتاباتي، وأن تكون السرعة منهجا لإنجاز أمور عملية وأدبية، التروي فيها قليل، فتأتي النتائج أحيانا على غير التوقع وتسبب إحباطا مؤلما، في زمن البراءة كنت أتحلى بما يمكن تسميته بالصبر الجميل، وبقدرتي على امتصاص الآثار، والتفكير في الأمور اللاحقة، ولكن القدرة على الصبر والامتصاص تضاءلت في الفترة الأخيرة من تجنيدي بالجيش وما تبعها من اغتراب وبناء أسرة، ساد نوع من القلق والاضطراب وخاصة في مجال المعاملات. لقد تربيت على حياة ريفية بسيطة هادئة شعارها الرضا، وجوهرها

السلام الروحي، ولكن أحوال البلاد والعباد جعلتني أفارق الصبر الجميل والامتصاص الهادئ.. ازدادت الحساسية تجاه الأشخاص والأشياء والقضايا، ثم كان هناك ما يمكن تسميته بالابتلاء الذي يعوق الحركة، ويقلل من الإنجاز، ولكني لا أنكر أن هناك كثيرا من النعم التي وهبها الله لي، عرفت أناسا طيبين في داخل البلاد وخارجها، وأنتجت عشرات من الأعمال الأدبية والمؤلفات العامة، ورزقت السفر إلى الخارج للعمل والمشاركة في المؤتمرات، والتعرف على بعض بلدان العالم الإسلامي.

إغلاق الأبواب

ولعلي ذكرت كثيرا من ذلك في الأجزاء الماضية من السيرة، وقد رأيت الدنيا في جوانب عديدة بألوان مختلفة، حتى جاءت مرحلة الصمت قسرا، وإغلاق الأبواب عنوة، وازدياد الآلام الجسدية والنفسية. توقفت عند العام الخامس عشر من الألفية الثانية، وتصورت أن ما كتبته في الأجزاء الثلاثة من السيرة يكفي، ولكن مطالبة بعض أحبابي بمواصلة الكتابة، وجلاء بعض المحطات، فضلا عن الشوق لأفضفض عن نفسي وأتناول بعض الأمور التي تحتاج إلى شهادة من أجل التاريخ، وليس من أجلي، كانت من الدوافع التي شجعت على معاودة الكتابة.

يمكن القول إن دخول القوقعة ومغادرة العالم الثقافي المغلق، قد فتح الباب من ناحية أخرى وقادني إلى عالم محبب تركته مرغما من نصف قرن وهو عالم الرواية والقصة، أو السرد كما يقول نقادنا المعاصرون. في شبابي نشرت أول مجموعة قصصية في عدد خاص من مجلة «الثقافة الأسبوعية» التي صدرت أيام القتال مع العدوّ بعد عبور قناة السويس في حرب رمضان المجيدة عام 1393هـ= أكتوبر 1973م. كانت المجلة تصدر عن مجلة «الثقافة» الشهرية في صورة متواضعة حيث صدرت على عجل بسبب ظروف الحرب، وقد تحسّنت فيما بعد. شاركت في الكتابة على صفحاتها وأنا مجند- لم أزل- من خلال باب أسبوعي اخترتُ له عنوان « يوميات من الميدان». كنت أرسل الموضوعات عبر البريد الحربي، وكان رئيس التحرير الدكتور «عبد العزيز الدسوقي» ينشرها على الفور، وقبل تسريحي في مايو 1974م، ذهبت إليه بمجموعة قصصية عن الميدان وما يجري فيه. عرضها على وكيل وزارة لا علاقة له بالأدب، فعطلها لبعض الوقت بحكم وظيفته وإثبات سلطته، ولكنها نشرت ولقيت حفاوة من بعض الكتاب والصحفيين، وأسعدني الدكتور «شكري محمد عياد»- رحمه الله- بمناقشتها في البرنامج الثاني للإذاعة، وأثنى عليها، وعدّها من الروايات التي تدخل تحت مسمى «رواية اللوحات» في الأدب الفرنسي (الشخصية الرئيسية في قصص

المجموعة واحدة ولذا عدها رواية)، وقد أعدتُ طبعها بعد أربعين عاما. وكنت قد نشرتُ عددا آخر غير قليل من القصص القصيرة الأخرى، تحمل شيئا من الرمز في عدد من المجلات المصرية والعربية (الأديب- الهلال- آخر ساعة- الخفجي..)، وللأسف الشديد لم أحتفظ بأصولها، ولا أعرف كيف أجمعها الآن بعد أن وهن العظم واشتعل الرأس شيبا.

بقايا النسخ

كانت روايتي «الحب يأتي مصادفة»، ولعلها أول رواية عن حرب رمضان، قد نُشرت في سلسلة روايات الهلال عام 1976م، ولقيت اهتماما كبيرا أيضا، وخاصة أن دار الهلال كانت تعلن عن مطبوعاتها على التلفزيون، فنفدت نسخها بعد وقت قصير، وذهبت لأشتري بعض النسخ لأهديها لأصدقائي، عقب نفاد كمية الهدايا التي تمنحها الدار الناشرة للمؤلف، فلم أجد غير بقايا من النسخ التي تأثرت بالشمس والهواء في أثناء عرضها لدى باعة الصحف، فاحتضنتها وعدت إلى قريتي، ووزعتها جميعا على أصدقائي من الأدباء، وعندما فكرت في إعادة نشرها بحثت عن نسخة لدى الأصدقاء، أعارني أحدهم نسخته، وقد ظهرت الطبعة الجديدة قبل سنوات.

عند صدور «الحب يأتي مصادفة « عام 1976، وفي ظل الحفاوة الكبيرة، فوجئت بمجلة «الطليعة « التي كانت تصدر عن

جريدة الأهرام، ويحررها الشيوعيون الحكوميون، تهاجمني شخصيا وتنتقد الرواية، من خلال شخص مجهول يكتب باسم مستعار، وتصدر المقال المهاجم الملحق الأدبي للمجلة. ولأني كنت فلاحا ساذجا، أرسلت ردا أدافع فيه عن شخصي، ولكنه للأسف لم ينشر، مع أن المجلة تصدّر صفحاتها بمقولة فولتير التي صدقتها:»أنا على استعداد أن أقدم دمي ثمنا للدفاع عن رأيك»، اكتشفت أن الشعار مجرد لعبة من ألاعيب مناضلي الورق والحناجر القوية، وأن الأمر في حقيقته لا يعبر إلا عن «أكل عيش»، في بيئة غير صالحة.

نشرت المقال الممنوع في «الاعتصام»، وعرفت بعدها كثيرا من تجليات التزييف والتضليل والفساد في الحياة الأدبية والثقافية، التي لا تقدم غير ما يعرف بثقافة «الإمتاع والمؤانسة»! أي لا تعبر عن الناس بقدر ما تعبر عن أصحاب المصالح والأيدولوجيات الفاسدة، وقد انتهت بشكل صريح إلى ما عرف بـ «الحظيرة» وأعلن عنها وزير ثقافة أسبق، حيث قال صراحة: لقد أدخلت المثقفين الحظيرة! وهو مصطلح شائن، عبر بصدق عن الواقع، فقد أفسدت هذه الحظيرة الأدب والثقافة، وجعلت البلاد تفقد قوة مؤثرة في العالم الإسلامي ضمن ما يسمى بالقوة الناعمة، وتحولت الحظيرة إلى مجموعات من أشباه الموهوبين والباحثين عن الشهرة، وكثير منهم يمكن أن يوضع في خانة الأرزقية!

***

نصيحة قديمة

بعد أن طالبني من يحبون بالكتابة السردية، تذكرت في القوقعة نصيحة قديمة قبل نصف قرن وجهها إلي الكاتب الراحل يوسف الشاروني، وهي أن أترك النقد وأكتب القصة والرواية، وكان يبتسم وهو يسوّغ لي نصيحته، يقول لي إن القصة والرواية لها عائد مادي، بينما النقد لا عائد له، قال لي:»ستنشر القصة في صحيفة وفي كتاب، وقد تتحول إلى الدراما أو السينما وكلها لها عائد، أما النقد فلن تأخذ منه إلا العداوة والكراهية!»، كان الرجل يعبّر عن تجربة شخصية، وللأسف عشتها أنا أيضا، لدرجة أن بعض أشباه الأدباء والشعراء من الأرزقية، لم يتورعوا عن الكيد الرخيص لشخصي، وهذا موضوع آخر لعلي أعود إليه.

لم أفد من السرد شيئا ماديا يذكر غير مكافأة «الحب يأتي مصادفة» من دار الهلال، وكانت مائتي جنيه بأسعار السبعينيات، وبقدر ما أسعدني نشر الرواية والاهتمام، فقد أحزنني أن يسطو عليها أحدهم ويقدمها مسلسلا في التلفزيون مع تغيير الأسماء وبعض الأحداث القليلة. كانت أمي تشاهد المسلسل وهي تتذكر أيام التجنيد، وتقول: كأنك أنت يا ولدي الذي يظهر في المسلسل! لم أقل لها شيئا، فقد عاشت أيام تجنيدي عقب الهزيمة حتى تسريحي بعد العبور، وعرفت مني ما يحدث في المعسكر وعلاقتي بزملائي، وقصصهم

وحكاياتهم مع أسرهم وما يتعلق بالزواج واختيار العرائس... لا أذكر الان اسم المسلسل، ولا كاتبه، ولكن بقي في ذاكرتي اسم ممثلة كانت تقوم بدور شخصية رئيسية، وهي «كريمة الشريف»، ولا أعرف إن كانت على قيد الحياة، أو انتقلت إلى رحمة الله.

تجاهل الرواية

المفارقة أن بعض مشاهير العمل الأكاديمي المعنيين برصد الكتب والأعمال الأدبية فيما يعرف بالببليوجرافيا (الموسوعات التوثيقية) تجاهلوا روايتي، ولم يذكروها، إمعانا في الانتقام الرخيص من شخصي، لأني لا أجاريهم في اتجاهاتهم الفكرية، ولا سلوكياتهم البشرية، وللأسف فقد اعتمد على قوائمهم بعض الصحفيين الذين يكتبون عن الأدب في ذكرى العبور كل عام، ولم يذكروا اسم روايتي ضمن «أدب أكتوبر». وبعثت لأحدهم- وكنت أعرفه معرفة سطحية- رسالة حدثته فيها عن الرواية، وذكرت له ما كتبته الصحف الكبرى والمجلات الأسبوعية عنها، وأخبرته أنها قد تكون أول رواية عن العبور ظهرت في مصر والعالم العربي، فنشر الرسالة وتعلّل بأنه لم يطلع على الرواية.

لم ألق بالا لمثل هذه الممارسات من الانتقام أو التعتيم، وظل خاطري يموج بعشرات الأفكار لروايات جديدة، شغلتني عنها

بحوثي الأكاديمية والنقدية والكتابة في القضايا العامة، ومنذ ذلك الحين عوّدت نفسي ألا أنشغل بالدعاية أو الإعلام، لأن في ذلك مضيعة للوقت، والعمل الجيد يفرض نفسه ولو بعد رحيل صاحبه.

النيل صديقا

كنت قبل كتابة الروايات الجديدة قد أنجزت ثلاثة أجزاء من السيرة الذاتية، مزجت فيها بين الخاص والعام، كان النيل قاسما مشتركا في عناوين الأجزاء الثلاثة، الجزء الأول: زمن البراءة– النيل بطعم الجوافة، الجزء الثاني: زمن الهزيمة: النيل لم يعد يجري، الجزء الثالث: زمن الغربة: النيل لا طعم له!

النيل صحبة عمري، ولدت على شاطئه، وشربت ماءه، وأكلت حلاله، وكان طريقي إلى المدينة حيث تعلمت وعملت، وكانت مراكبه وقواربه وسيلة مواصلاتي ومجال نزهتي، وفي الطفولة قلدت المراكب والقوارب، فصنعت مراكب صغيرة من الصفيح والقماش لألهو بها مع لداتي في المستنقعات المجاورة للشاطئ، وفي موسم الفيضان كنا نخرج لنتابع فرق الرشّ التي تحاول تثبيت الجسور الترابية كي لا يكتسحها النيل الهادر القادم من الجنوب.. النيل رمز لعطايا الله غير المحدودة، الطمي المخصب، الماء العذب، السمك المتنوع، المراكب الكبيرة القادمة من الصعيد تحمل العسل والتمور والبقول، الجمال الذي لا يوصف لرائحة الماء وطعمه ولمعان لونه،

ومع أن تيار الفيضان كان يحمل جثث بعض الغرقى المجهولين، فقد كان في عمومه مصدر فرح للناس على كل المستويات.

شر البلية!

للأسف فإن الناشر الإسلامي لسيرتي الذاتية- يرحمه الله- ضنّ عليّ بنسخ الهدايا من السيرة، فضلا عن أية حقوق للنشر أستحقها مع كتب أخرى، وقال لبعضهم: إنني مدين له! وضحكت، وشر البلية ما يضحك، إنه لم يدفع مليما واحدا، فكيف أكون مدينا له؟ بعد رحيله حاولت الاتصال ببعض أقاربه، ولكنهم لم يردّوا، ولم يفكروا في تبرئة ذمته أمام الله تعالى!

وهكذا يقدم بعض من يرفعون راية الإسلام نماذج لا تمت إلى طبيعة الإسلام بصلة. اتخذوه وسيلة للارتزاق الحرام من عرق آخرين، ويزعمون أنهم لا يبيعون ولا يربحون، وهم ينتقلون في معيشتهم من العشوائيات إلى الأحياء الراقية، ويغيرون سياراتهم من الموديلات القديمة إلى أحدث الطرازات، وبعضهم لا يكتفي بالهواتف الذكية المتداولة بل يقتني أفخرها وأغلاها! وإذا حدثوك عن الإسلام والدعوة فاعلم أنهم كذابون ونصابون ودجالون ومنافقون، يظهرون أمام الناس بتواضع زائف، وفي داخلهم تزدهر النرجسية فاقعة.. قليل منهم صاحب رسالة، ويملك إخلاصا

للدين، وخوفا من رب العالمين! الزائفون عبء على الإسلام والدين والإنسانية جميعا، لأنهم يأكلون حقوق الناس.

الوقوع في البحر

في ظل إغلاق الأبواب المحكمة أمام النشر في القضايا العامة والثقافية، عاودني التفكير جيدا في الكتابة السردية. كنت أحمل في داخلي- كما أشرت من قبل- وطوال نصف قرن أفكارا كثيرة ومشروعات عديدة، حول روايات وقصص، وكنت أمنّي النفس أن أجد الوقت اللازم للجلوس والتعبير عنها سرديا، ولكن العمل الأكاديمي وأحوال المسلمين وقضايا الأدب والفكر كانت تشدني، وتستأثر بالوقت والجهد. لقيت تشجيعا من نجلي (محمود) كي أبدأ في كتابة الرواية من جديد، كنت متهيبا كأنني سأقع في بحر، تساءلت كثيرا فيما بيني وبين نفسي: هل أستطيع أن أكتب رواية مثل التي كتبتها منذ خمسين عاما؟ هل أقدر على الجلوس والبدء في الكتابة، ومتابعة الرواية حتى أنتهي منها؟ هل يمكن أن أركز في الأحداث والتفاصيل التي تطفو ساطعة على سطح ذاكرتي أحيانا، ثم تغيب وتذهب إلى أعماق النسيان كأنها لم تكن موجودة؟ هل أجد التدفق في التعبير كما يحدث في الموضوعات العامة والبحثية؟ أسئلة كثيرة كانت تقعدني عن المبادرة، وتشدني بعيدا، بيد أن الفكرة كانت تتوهج بداخلي من أجل الكتابة في شد وجذب، وانتهى الأمر إلى سؤال:

كيف أكتب رواية يطالعها الناس في زمن مختلف؟

الزمن المختلف هو القراء والنقاد والرواية، صورة مختلفة عن جيل الرواد الذي كان يتقن الصياغة ويبلور الفكرة، ويعطي نموذجا مختلفا للفن الروائي عن النموذج السائد الحالي. الرواية الآن كما ينظر النقاد وينتظر القراء تقوم على ثلاثة أعمدة رئيسية: التجديف، والجنس، والعبودية.. كي تكون روائيا ناجحا لامعا، بغض النظر عن الموهبة وامتلاك الأدوات الفنية، عليك أن تجدف في حق الذات الإلهية، مع الطعن في الدين (الإسلام وحده)، وأن تحول صفحات الرواية إلى مشاهد جنسية (بورنو) لجذب المراهقين خاصة، وأن تبدي عبوديتك للأنظمة المستبدة، وتوالي الغزاة اليهود، وثقافة الغرب الاستعماري، وتتملق من بيدهم المنح والمنع (مؤسسات، طوائف، شخصيات).. إذا خالفت هذه (الأقانيم!) الثلاثة، فلن يقرأك أحد، ولن يهتم بك ناقد أو باحث، ولن تجد ناشرا للرواية، أو صحفيا ينشر عنها خبرا في سطرين بصحيفة سيارة، حتى لو كنت موهوبا وتملك أدواتك، وتتناول قضايا تستحق الاحتشاد والتناول.

ثم إن الساحة الثقافية في العالم العربي دخلت لعبة الجوائز، تخصصها بعض الجهات أو السلطات لغايات معينة، واستقطاب أقلام تسبح بحمدها وتقدس لها، وكثيرا ما رأينا كتابا كانوا يلعنون النفط ودول النفط، يصبحون من المقربين لهذه الدول، ويجلسون

على حجرها ويحظون بعطاياها مالا ونشرا واستضافة في مؤتمرات وندوات ومهارج وزيارات خاصة تحت لافتات مختلفة!

كيف أكتب في هذا المناخ الرديء المعادي لكل فضيلة؟

كان أمام عيني بعض نصائح الكتاب الأرزقية منذ عقود، إذا أردت أن توزع رواية، وتنتشر وتشتهر فما عليك إلا بتناول الإسلام بطريقة مخالفة، مع جرعة إباحية مثيرة، والتقرب إلى الكنيسة أو أنسنة اليهود الذين كانوا في مصر، وهربوا إلى الكيان الصهيوني وخانوا أوطانهم التي تربوا فيها وتغذوا بلبانها، وعرض حكايات غرام مع يهوديات جميلات وفيّات فرقتهم الحروب!

في يوم ما طالعت خبرا عن أحدهم ينصح آخر له شعبية: كي تصل إلى العالمية، أكتب رواية عن منتقبتين سحاقيتين لم تختن إحداهما، ثم.. ثم.. وستوزع آلافا بل عشرات الآلاف، بل مئات الآلاف من النسخ!

شكوى ضد النفس

كانت عصابات الثقافة الجديدة تجلس على مقاهي وسط البلد (القاهرة)، ويكتب أحدهم كلاما ركيكا سخيفا يسميه رواية أو ديوانا، تنشره المؤسسات الرسمية، ولا يقبل عليه القراء، ويعود إلى المخازن كالعادة، فيكتب شكوى في نفسه يرسلها إلى مشيخة الأزهر

بأن النص الذي كتبه فلان (يقصد نفسه) يطعن في الدين، فينتفض المسئولون هناك دفاعا عن الإسلام، ويلتقط الخيط صحفي من العصابة وينشر أخبارا زائفة من عينة: الأزهر يصادر رواية كذا، أو ديوان كذا، أو يزعم أن الرجعيين في الأزهر يصادرون حرية التعبير بحظر كتاب فلان أو علان.. ويتردد الصدى في الإذاعة والتلفزيون والصحافة والندوات، ويصدق البسطاء ما يقال، ويتهافت القراء على المطبوع المزعوم مصادرته وحظره، فيحقق عضو العصابة شهرة لم يحلم بها، وتروج كتابته الغثة، ويكسب الفاسدون المعركة!

لحسن الحظ أدرك المعنيون في الأزهر بعد حين سر اللعبة التي تكررت كثيرا، فآثروا الصمت، وباء أشباه الكتاب، ومعدومو الموهبة والضمير بالخسران المبين، بالإضافة إلى إعلان الأزهر وتأكيده مرات عديدة أن الأزهر لا يملك حق مصادرة أي مطبوع، لأن ذلك حق للقضاء وحده، ولكن الفاسدين لا يكفّون عن ابتكار الأساليب الخسيسة لترويج بضاعتهم الزائفة!

من الذي يقدر أن يقتحم هذا المناخ بمنهج آخر يختلف، ويقدم صورة للفطرة الإنسانية في إيمانها وسلوكها الطبيعي ومواقفها الإنسانية المبدئية؟

قبلت التحدي، ويدي ترتعش ليس خوفا من فساد الحقل الثقافي، ولكن من استعادة تجربة الكتابة بعد خمسين عاما.

أدب مختلف

توكلت على الله، واخترت فكرة مختزنة من واقع عملي في الجامعة، وبدأت أكتب وعلى مدي شهور توالت الفصول، ولم أصدق نفسي، وأنا أسجل النهاية.

شاءت إرادة الله أن يزورني بعد حين ناشر شاب يبدأ تجربة تهدف إلى تقديم أدب مختلف يحترم عقل القارئ وتتوفر فيه الجودة الفنية والفكرة الراقية. كنت أتممت رواية أخرى عن موضوع لم يكتب فيه أحد من قبل وهو الغش في الامتحانات، فحمل الناشر الروايتين (شغفها حبا، ومحضر غش)، وكتابا بحثيا ضخما عن الرواية التاريخية نفدت طبعاته السابقة، وبعد فترة كانت هناك رواية ثالثة (شكوى مجهولة)، ورابعة (الرجل الأناني)، وظهرت الروايات الأربع مع الكتاب البحثي، وبذل المحبون جهودا كبيرة لنشر بعض الأخبار عن بعض الروايات في بعض المواقع، المحررون الثقافيون وبعضهم يفتقد القدرة على صياغة جملة صحيحة، كانت لهم مواقفهم وظروفهم التي تجعلهم ينحازون إلى المناخ الفاسد، لم يهتموا بالروايات مثلما يهتمون ببعض الكتابات الرديئة والمخطوطة (التي لم تنشر بعد) وتتوفر في أصحابها مواصفات فكرية وبشرية معينة، لا أمتلكها!

دراسة مطولة

لم آسف على التجاهل أو التعتيم، ولكن صديقا كريما هو الدكتور إبراهيم عوض الأستاذ بآداب عين شمس، قرأ الرواية الأولى (شغفها حبا)، فانبهر بها، وكتب عنها دراسة مطولة، نشرت مختصرة بعد حين في مجلة «الضاد» التي يصدرها اتحاد الكتاب، ثم قرأ الرجل الروايات الأخرى ومن بينها رواية نشرتها لدى ناشر آخر (اللحية التايواني)، فتحمس لعمل كتاب ضخم، نشر في حينه، وكانت حفاوة كبيرة من زميل أكاديمي يملك شرف الكلمة الموضوعية المحايدة.

أسعدني صدور هذا الكتاب الذي ألفه الدكتور إبراهيم عوض، وأرضاني، ومسح عن صدري غضبا مستكنا تجاه الحياة الأدبية الفاسدة التي تنهض على الشللية والارتزاق وهشاشة الفكر، وضحالة الموهبة، وخبرة النفاق الرخيص.. ومع زهدي في الدعاية والشهرة، واحترامي لنفسي أمام من بيدهم مقاليد الحركة في الحقل الثقافي والإعلامي، إلا أنني إنسان يريد أن يصل ما يكتبه للناس..

بعيدا عن الضجيج

في شبابي ارتبطت كتاباتي في أذهان معظم الناس بمواقفي دفاعا عن الإسلام والناس، مع أنني كنت في الوقت نفسه أنشر قصصا

ونقدا ودراسات أدبية، في داخل مصر وخارجها. كانت الصحف والمجلات التي أكتب فيها فقيرة التمويل، ضعيفة الإمكانات، بيد أنها كانت حرة، واسعة الانتشار بالقياس إلى الدوريات الرسمية، باستثناء الصحف اليومية. ولم يدرك الجيل الجديد من المشرفين على الصفحات أو البرامج الثقافية أن الكتابة الأدبية جزء من إنتاجي، لدرجة أن بعضهم وخاصة من أهل الهوى والارتـزاق، صنفني ضمن هذا الحزب أو ذاك التنظيم أو تلك الجماعة، مع أنني طوال حياتي لم أنتمِ إلى تشكيل حزبي أو تنظيمي، وعشت حياتي معتزلا في قريتي بأعماق الريف بعيدا عن الضجيج والصراعات في القاهرة، كي أفرغ لقراءاتي وكتاباتي. ومن الطرائف التي ذكرتها من قبل أن التنظيمات السياسية التي كانت عضويتها إجبارية بالنسبة لموظفي الحكومة (الاتحاد القومي ثم الاتحاد الاشتراكي)، لم أدخلها. فقد كنت مدرسا في مدينة تقع على الضفة الأخرى من نهر النيل فرع رشيد مقابلة لقريتي. المسئولون في المدرسة كانوا يظنون أنني عضو في لجنة القرية، والمعنيون في القرية كانوا يعتقدون أنني في لجنة المدرسة بالمدينة، فلم يطلب مني أحد عضوية الاتحاد القومي أو الاتحاد الاشتراكي العربي، وهكذا أفلتّ عفويا من العضوية، ومن دفع اشتراكها الشهري، وكان يقدر بعشرين مليما، وهو مبلغ محترم في ذلك الوقت يشتري وجبة معتبرة لعابري السبيل!

مالك الملك

تتابعت الكتابة السردية، فنشرت على غرار ما كتبه نجيب محفوظ في «أحلام فترة النقاهة» مجموعتي « أحلام الشيخوخة»، ومزجت بين الخيال والواقع بطريقة ما. ثم كتبت رواية «مالك الملك» وفيها كشفت عن جوانب إنسانية خبيئة داخل أفئدة المظلومين والمساكين، وتطلعت للكتابة عن تجربة غير مسبوقة، وهي الانتقال من قرى الاستقرار في الوادي إلى الأراضي المستصلحة في صحراوات مصر، وما يتبع ذلك من معاناة واضطراب وتغيرات، فكانت رواية «الشمس الحارقة»، وشغلتني مظاهر التغير في قيم القرية، وشراء الخبز من الأفران العامة ونمو طبقات جديدة متسلقة، فكانت روايتي «مكر الليل والنهار»، ولأن الصحافة كانت تتعلق برقبتي منذ زمان بعيد فقد تناولت واقع الصحفيين وأحوالهم مع السلطة التي سيطرت علي صحفهم وتحكمت في أرزاقهم فوضعت روايتي «مجلة الأنس»، ثم استعدت جزءا من الذاكرة في مراحل الطفولة والشباب والنضج، فكتبت رواية «شجرة الجميز»، التي قدمت الصراع بين الأقوياء والضعفاء في القرية المصرية في منتصف القرن العشرين. ولم يتوقف إلحاح الواقع الأكاديمي وما يجري فيه من سيولة القيم والتقاليد، فأنشأت رواية «أم سعيد»، ودفعت إلى النشر برواية جديدة حول موضوع شخصية جدلية (سعد حلاوة)،

عنوانها «المجنون الجميل»، وما زال لدي موضوعات كثيرة، ينوء بها أرذل العمر ووهن الصحة!

رواية الإرهاب

أيا كان الأمر، فإني لا أتوقف عن القراءة والكتابة، وقد أنجزت في العام الحالي (2023) كتابا مطوّلا بدأته قبل نحو عامين، حول رواية الإرهاب في الرواية العربية، سميته «الوردة والمستنقع»، ولا أدري هل يجد ناشرا أو تقف الظروف غير المؤاتية ضد نشره؟

كنت قبل سنوات قليلة، قد وجدت نافذة للنشر في عاصمة عربية، ورحبت النافذة –وهي مجلة إسلامية– بنشر بعض المقالات الأدبية، وكنت قد شاركت بكتاباتي فيها عند إنشائها في السبعينيات من القرن الماضي، وتابعت النشر على فترات، ولكنها فيما يبدو أخذتْ في الفترة الأخيرة– لأسباب لا تخفى– تتحسّس رأسها، فأهملت نشر ما أكتب، وقيل لي كلام معناه: أن هناك تغييرا في سياسة المجلة، وجوّا غير صحي، فآثرت أن أكفّ عن إرسال أية كتابات إلا إذا طلب مني!

الإقصاء والاستئصال

مشكلة أن يقال عنك إنك تتبنى الفكر الإسلامي من أجل حياتك وسلوكك وفكرك في بلاد الإسلام! رعاة الحياة الثقافية في العالم العربي الآن يضعون الإسلام في خانة الإرهاب والظلام

ومعاداة الحياة، ومن يعتمد التصور الإسلامي فهو في خانة الرفض والعداء ويترتب على ذلك الإقصاء بل الاستئصال، حتى لدى نوافذ النشر المذعورة التي ترفع راية إسلامية زائفة، بعضها اكتفى بالإنشائيات المعروفة عن الرقائق، وبعضها الآخر تخفى وراء الرواية ليتربح ويتكسب، وينشر كتبا أو موضوعات لا تتلامس مع الواقع الإسلامي وهمومه، لدرجة أنها تتجاهل الأحداث الكبرى، أو لا تشير إليها أحيانا إلا من زاوية هامشية خوفا وهلعا من المؤاخذة!

في اللحظة التي أسجل فيها هذه السطور(7/ 7/ 2023)، تابعت بعض المواقع والمجلات الإسلامية لأرى تناولها- ولو من باب الاستنكار- للهجوم الدموي الإرهابي الذي شنته قوات العدو الصهيوني على مدينة جنين الفلسطينية المحتلة، وأسفر عن استشهاد اثني عشر فلسطينيا، فضلا عن مئات المصابين وتدمير عشرات البيوت، فلم أجد أثرا للحدث ولا تفاعلاته على أي مستوى. وكان غاية اهتمام هذه المواقع هو الحديث عن خواتيم السور، والرقية الشرعية، والعلاقة مع مدير العمل...! البشارة.. كونوا ربانيين.. لا مذهبيين ولا طائفيين، بيمارستانات دمشق في العصر الوسيط، نماذج من أدب الاختلاف في عصر الصحابة رضي الله عنهم، العلاقة بين الزوجين.. من صفات عباد الرحمن: البعد عن قتل النفس، رسالة إلى كل أم، عقوبات الربا.....!

العدالة الثقافية!

ولكن يبقى سلوك الإقصائيين والاستئصاليين ممن يرفعون راية التنوير والعلمانية هو الأبرز والأخطر في الحياة الثقافية الفاسدة، وهو سلوك يعتمد على التهويش والتضليل والكذب والإنشائيات الفارغة، التي قلّلت من دور مصر الثقافي أمام العالم، وجعلت منه مجرد مُستقبِل لمعطيات الآخرين، بل تابعا لمن كانوا أقل ثقافة ووعيا ومواهب..

اقرأ ما كتبه وزير سابق في تقرير يعدّد فيه نجاحاته المزعومة، حيث يؤكد(!!) أن الوزارة بمختلف هيئاتها وقطاعاتها ومراكزها، استطاعت خلال العام 2016 أن تقدم مئات الأنشطة في مختلف المجالات الثقافية، داخل مصر وخارجها، في سبيل تأكيد رؤيتها واستراتيجيتها وهي نشر العدالة الثقافية(؟)، وهو ما يجعلنا نؤكد أن عام 2016، كان عاما ثريا في أحداثه الثقافية. وأوضح المذكور في مقدمة تقرير حول حصاد 2016 الثقافي، أن هناك حرصا على تقديم كل أنواع الثقافة للمصريين، والتعريف بالثقافة المصرية، والحفاظ عليها ورعاية المبدعين والفنانين، (لا يستطيع المذكور أن يدعي أن الثقافة الإسلامية وهي الثقافة الوطنية والقومية للبلاد كانت ضمن خططه التي يشير إليها!) بالإضافة إلى التكريم والاحتفاء برواد الفن والثقافة وإحياء ذكراهم، وتقديم رواد الفكر الثقافي والتعريف بهم في المحافل الدولية (ليس من بينهم واحد يتبنى الإسلام ثقافة وفكرا، ولكنهم

في مجملهم شيوعيون وناصريون وليبراليون وأرزقية!) والوصول إلى أبناء مصر في الخارج. وتحدث التقرير أو كاتبه عن معارض الكتب في الداخل والخارج، وهي نشاط تجاري بالأساس، يروج للفكر المضاد للإسلام في كثير من المطبوعات، مع إشارات إلى إنشاء بعض المكتبات والأنشطة التي يفيد منها الباحثون عن «السبوبة»!

تدحرج القيم

من الطريف أن الوزير الذي يتغزل في نشاطاته الثقافية السطحية الروتينية، شهد عهده تدحرجا في القيم الثقافية والأدبية على يد أفراد الحظيرة التي ترعاها الوزارة، ورأينا بعضهم يكتب ألوانا من النصوص المتدنية التي هبطت إلى درجة «البورنو» في صحف تملكها الدولة وتنفق عليها، وقد وصل بعض كتابها إلى المحاكم نتيجة لتأثر الرأي العام وغضبه على المستوى الذي انحطت إليه الكتابة الأدبية. وقد أفاضت الصحف والمواقع في الحديث عن بعضها، كما جرى في جريدة «أخبار الأدب» التي تصدر عن مؤسسة أخبار اليوم، حين نشرت كلاما جنسيا مكشوفا لا مسوغ له من فن أو فكر أو موهبة، وذكرت أنه فصل من رواية لكاتب مجهول ينشر لأول مرة. ولكن الجريدة والحظيرة وأرزقية الأدب والثقافة، جعلوا من كاتب البورنو ضحية للمجتمع المسلم الظالم الذي يقمع الفكر والحريات، وأعلنوا أنهم يتضامنون معه (في انحلاله وانحطاطه)،

وناشدوا القضاء ببراءته بعد قضاء عشرة أشهر من سنتين قضاها في السجن. (تنظر مواقع وصحف 22/ 12/ 2016).

لقد سخر رعايا الحظيرة الثقافية – وتلك تسمية وزير ثقافة أسبق كما سبقت الإشارة، وليست من عندي- من المواطن هاني صالح توفيق، الذي رفع دعوى قضائية، بسبب ما نشرته جريدة أخبار الأدب فى العدد 1097، فأحدث له «اضطرابا فى ضربات القلب، وإعياء شديدا وانخفاضا حادا في الضغط»، الأمر الذى دفعه لأن يتهم كاتب البورنو بـ»خدش حيائه وحياء المجتمع». وعقدت محكمة جنح بولاق جلساتها، واستمعت لشهادة وزير ثقافة أسبق، وكاتبا صحفيا، وأحد الروائيين، ومحرر جريد أخبار الأدب. والمفارقة أن الشهود لم يستطيعوا (خجلا) قراءة نص البورنو أمام القضاة حين طلب منهم ذلك!

قالت النيابة: إن الاتهام ثابت على المتهمين (الكاتب والمحرر) وكافٍ لتقديمهما إلى المحاكمة الجنائية بسبب ما قام به المتهم الأول ونشره مادة كتابية نفث فيها شهوة فانية ولذة زائلة وأجّر عقله وقلمه لتوجه خبيث حمل انتهاكًا لحرمة الآداب العامة وحسن الأخلاق والإغراء بالعهر خروجًا على عاطفة الحياء.

وقالت النيابة عن المتهم الآخر، رئيس تحرير الصحيفة، أيد ذلك

(الاتهام) عندما سألته النيابة عما إذا كان قد راجع المقال فقال «إنه راجع العنوان دون قراءة النص كاملاً، وأنه ما كان ليسمح بنشره إذا قرأه تفصيليًا»، وبعد انتهاء التحقيقات أحالت النيابة العامة المتهمين إلى محكمة الجنح، على أساس أن ما نشراه يشكل جريمة تهدد أمن وسلامة المجتمع.

أحرق عملك

وفي سياق الابتذال العام وغوغائية التيار الحظائري الذي عصف بالثقافة أطلق عدد من الحظائريين عقب الحكم بحبس كاتب البورنو حملة بعنوان «أحرق عملك الإبداعي» للاعتراض على حبسه، بوصف ذلك نوعا من الاحتجاج الرمزي على الحكم كما يقولون، ولأن الحظائريين يملكون فائضا كبيرا من البجاحة والوقاحة، حين يسمون أنفسهم مبدعين دون أن يسميهم الناس، فقد زعموا أن ما يسمى ملتقى الرواية العربية، قام فى 30 من أبريل 2016، بوضع مقعد خال لكاتب البورنو بإحدى جلسات الملتقى تضامنا معه، حيث كان سيلقي بحثا حول «الرواية والخطاب السياسي وتجاوز الثالوث المحرم»، ويقصد بالثالوث المحرم: السياسة والدين والجنس، وأظنه وقبيله لا يستطيعون إلا تجاوز الدين والجنس أما السياسة فلا يستطيعون الاقتراب منها، لأنهم يعلمون عقابهم لو فعلوا!

لقد طالب الحظائريون الذين أفسدوا الثقافة وانحطوا بها بسرعة تعديل المادة 178 من قانون العقوبات، التي تقيد حرية الكتاب والمبدعين بعقوبة الحبس بما يتعارض مع الدستور وحرية التعبير. (البورنو حرية تعبير!)، وفي المقابل حين يعبر كاتب عن إسلامه يتهمونه بالإرهاب ويطالبون بقمعه واستئصاله، بل يبادرون إلى إهانته والتشهير به!

منهج الحظيرة مستمر منذ سيطرة السلطة على الحياة الثقافية قبل سبعين عاما، كانت القبضة متراخية قليلا في عقد الخمسينيات، ثم أخذت تتشدد في السبعينيات وما بعدها حتى الآن. أطياف الثقافة- عدا من يعبرون عن الإسلام- مسموح لهم بالكتابة والمشاركة والحصول على الجوائز، مهما كانت اتجاهاتهم: يسارية، طائفية، ليبرالية، علمانية، ماسونية، بهائية، باطنية، أو غير ذلك من معتقدات وتوجهات وانتماءات..

محاولة فاشلة

حاول وزير الثقافة الأسبق فاروق حسني أن يظهر بمظهر الوزير المتسامح مع الأفكار المختلفة بما فيها (الإسلام)، فأنشأ جريدة ثقافية اسمها «القاهرة»، ولها قصة طريفة وغريبة، فقد كانت الفكرة أن تكون القاهرة مجلة أسبوعية ثقافية شاملة، وأن يرأس تحريرها الكاتب الراحل «رجاء النقاش»، وله خبرة سابقة ناجحة

في تأسيس الصحف اليومية والمجلات الثقافية وتحرير ها. فقد أسس جريدة الراية القطرية، ثم مجلة الدوحة الثقافية، وقبل ذلك كان يحرر الركن الأدبي في جريدة الأخبار المصرية، ورأس تحرير مجلة الهلال العريقة لبعض الأعداد، وشارك في تحرير المصور والأهرام، وهو بصفة عامة من أفضل من يقدمون وجبة ثقافية شائقة ولو اختلفت مع بعض مضامينها. أعد رجاء للمجلة الثقافية المزمع إنشاؤها بتوجيه وزير الثقافة الأسبق، وكان لظروف- ربما كانت صحية- يرسل تجارب المجلة وترتيب صفحاتها وأبوابها (الماكيت)، مع صهره «صلاح عيسى» (زوج أخته أمينة النقاش) ليطلع عليها الوزير، ولكن المسألة تحولت من «مجلة» إلى «جريدة» يراسها صلاح بدلا من رجاء!

كان الأمر مباغتا للحياة الثقافية، ومباغتا أكثر للرجل الذي عمل على إصدار المجلة وبذل جهدا في الإعداد لإصدارها، وفسّر كثيرون الأمر بأنه نوع من (غدر الأقارب!)، فقد أقنع صلاح عيسى الوزير بإصدار الجريدة بدلا من المجلة، على أن يتولى هو رئاسة تحريرها! ووضح أن الأمر في جوهره إفادة مادية من رئاسة التحرير، وعائد الإعلانات، فضلا عن الحضور الثقافي والإعلامي. راجت أقوال كثيرة بهذا الشأن، وبدا رجاء النقاش غاضبا وثائرا في الدائرة المحيطة به، ولكن الوزير صالحه بعد ذلك بجائزة الدولة التقديرية.

اتصال هاتفي

فوجئت ذات مساء قبل أن تصدر جريدة «القاهرة» باتصال هاتفي حيث أسكن في أعماق الريف، بعيدا عن العاصمة وضوضائها وصخبها، كان على الخط الآخر صلاح عيسى، وكانت مفاجأة لم أتوقعها. حكى لي أن «القاهرة» ستكون متاحة أمام جميع الآراء، ولا قيود على ما يُكتب إلا ما تفرضه المهنية والآداب العامة، وذكر لي أن عددا من الكتاب المعروفين سيشاركون في الكتابة، شكرته ووعدته بالتعاون.

سارت البداية سيرا حسنا، ونشرت المقالات دون تدخل كبير، وبعد فترة قصيرة بدأ التدخل يكبر، تغيير العناوين وحذف فقرات أو عبارات، مع أن ما أكتبه كان في المجال الأدبي، وللحق، فقد كان يتصل بي صلاح عند أي تغيير، ولكني اكتشفت فيما بعد أن الوزير كان يطلع بنفسه على الأعداد قبل صدورها، وبدا منزعجا من كتابة بعضهم، الذين توقفوا تباعا، ولم يبق غيري والراحل الدكتور محمد عمارة الذي كان يعالج في موضوعاته قضايا تاريخية صرفة لا تشتبك مع الواقع بصورة مباشرة. وربما كانت علاقته بصلاح قوية من أيام اعتقال الشيوعيين وأحد أسباب بقائه، ولكني لاحظت من كثرة التغيير والتبديل في موضوعاتي نوعا من عدم الرضا عن وجودي، وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير، حين هاجمتني كاتبة شيوعية بأسلوب سوقي، فرددت عليها بأسلوب هادئ ومهذب، وأرسلت

الرد، ولكن الجريدة لم تنشره بعد مضي عدة أسابيع، فاضطررت لنشره في جريدة «الميدان»، وبعثت بمقال آخر إلى القاهرة فلم تنشره، واتصلت برئيس التحرير، فأخبرني أن (مجلس التحرير!) قرر عدم نشر مقالاتي، سألت عن السبب، فقال لي صلاح: لا يجوز أن ترد على كاتب عندنا في مكان آخر! قلت: ولكنكم لم تنشروا ردي، فقال: كنا سننشره! وهذا لم يكن صحيحا، فقد كان القرار للوزير بالتأكيد، وذابت مقولات الجريدة حول الدفاع عن الرأي المخالف، ودفع الحياة ثمنا له. أكذوبة دحضها الواقع المؤسف!

اتجاه واحد

انتهت التجربة بالنهاية التي كنت أتوقعها في المناخ الثقافي الفاسد الذي لا يحتمل غير اتجاه واحد، وفكر واحد، هو الفكر المادي الذي يؤمن به اليسار والقوميون والليبراليون والطائفيون ومن على شاكلتهم.. أما دخول الإسلام في المعترك فمحظور، ولو كان شكليا. صارت القاهرة، بعد تنظيفها من الأقلام غير المريحة أو غير المقبولة، ساحة واسعة لاستدعاء الأقلام الماركسية والقومية والطائفية، حتى الذين طواهم النسيان أخذوا يلمعون من جديد على صفحاتها، في شتى المجالات: السينما، المسرح، الغناء، الموسيقى، الأدب، التاريخ، المذكرات، السيرة الذاتية، التحقيقات.....إلخ! الإقصاء والاستئصال كان من نصيب المؤمنين بالإسلام دينا ودنيا،

حياة وآخرة، عقيدة وسلوكا، منهجا وتصورا، فهؤلاء لا يحق لهم الوجود ولا البقاء، ولو ضمن نظرية قبول الآخر التي صدّعوا رءوسنا بها!

بعد وفاة صلاح عيسى صارت جريدة «القاهرة»، أو بالأحرى رئاسة تحريرها مكافأة لبعض من تصطفيهم السلطة من أتباعها، حتى لو وزعت أقل من ألف نسخة في الأسواق، فهي تفرض على بعض الجهات الرسمية الاشتراك في أعدادها، وبالطبع يسدد ثمنها من ميزانية الحكومة. وعلى كل حال أضحت «القاهرة» بعد عقدين أو أكثر من الزمان، مجرد مطبوعة يرأس تحريرها بالتتابع أشخاص يدينون بالولاء للسلطة قبل أي مبدأ، ولا أثر لهم من الناحية المهنية أو الفكرية، ولا أظن جمهورا مؤثرا يتابعها، مثلها مثل بقية الصحف!

ضمير الناس

ويمكن القول أن مجلات وزارة الثقافة بصفة عامة ذات تأثير محدود في الحركة الثقافية أو الفكرية أو الأدبية، فهي مبدئيا تطبع بأعداد قليلة، وتحريرها قاصر على مجموعات معينة تتبادل المصالح فيما بينها، وهي تخضع مثل بقية المطبوعات للظروف الاقتصادية الخانقة، غلاء الورق والأحبار وسوء التوزيع وقلة عدد القراء، فضلا عن تحريرها الذي لا يعبر عن ضمير الناس ولا عن همومهم، وهو ما جعل منها مجرد مطبوعات غير مفيدة.

والأمر ذاته بالنسبة لنشر الكتب، فمعظم ما ينشر لا قيمة له، ولا يشتريه القراء، ويعود إلى المخازن لتقتات عليه فئران أرض اللواء والهرم، ناهيك عن المستوى الرديء للكتّاب، وكثير منهم لا علاقة له بالإملاء والنحو والصرف والتراكيب، وأذكر أنني قرأت بعض الروايات الصادرة عن هيئة الكتاب، فوجدتها مليئة بالأخطاء، مع أن الناشر وضع على الغلاف الداخلي اسمين يحملان درجة الدكتوراه في اللغة العربية، عهد بهما لتصحيح الرواية، أعرف أحدهما رحمه الله، وقد فسرتُ الأمر بأن المصححين لم يطالعا الرواية أساسا، وتركا أمرها لمؤلفها محدود التعليم والثقافة!

الرفض والقبول

أما ما يتعلق بإجازة الكتب فأمره أعجب وأغرب. ما يراد نشره يتم الإيعاز للمحكم أو المحكمين بإجازته،، ومن يرفض نشره فيعهد إلى التحكيم أيضا برفضه، ومن أطرف ما جرى معي في هذا السياق، أن صديقا يعمل في هيئة الكتاب ألحّ على قبل عشرين عاما تقريبا، أن أتقدم إليها لنشر بعض كتبي، وأفهمني أنه سيتولى متابعة الأمر. في البداية رفضت، لأني أعلم أنهم لن ينشروا لي مهما كان الكتاب مهما ومتميزا، وتحت إلحاحه المستمر وافقت، وسلمته كتابين، متصورا أنه يمكن نشر أحدهما على الأقل. مرت شهور، وسألت صاحبي عن النتيجة، فأخبرني، أن المحكّم- وذكر لي اسمه،

وأعرفه جيدا، كتب في تقريره كلاما غير معقول. فقد ذكر عن أحد الكتابين اللذين كانا في النقد الأدبي الخالص، أنه يهاجم دولة العراق مما يسيء إلى العلاقات بين البلدين! ابتسمت في داخلي، لأن رؤيتي كانت صحيحة حين أيقنت عدم النشر، ولكني لم أتوقع أن يصل الكذب لدى المحكّم إلى هذا المستوى، فالكتابان ليس بهما كلمة واحدة عن العراق من قريب أو بعيد!

وأكدت الأيام فيما بعد صحة نظرتي لسلوك الهيئات الثقافية التي يفترض فيها النزاهة والحياد و«العدالة الثقافية» كما يردد بعض من تولوها، أقنع أحدهم نجلي، أن يذهب معه إلى الهيئة لتقديم كتاب له- أصله رسالة علمية- ليتم نشرها، فقام بطبعها ورقيا في أكثر من نسخة، ثم طبعها على اسطوانة، وقدم الأوراق المطلوبة رسميا. طلب منه الموظفون أن يراجعهم بعد فترة، وذهب صديق نجلي ليسأل أحد المعنيين بالنشر عن الكتاب- وهو من أدعياء الأدب- فأقسم له «بالطلاق!» أنه لن ينشر له لأنه ابني، وأضاف للصديق أنه لن ينشر له أيضا بسببي!

تورم الأطراف

من المؤكد أن وزارة الثقافة منذ إنشائها لم تضف جديدا ذا قيمة إلى الثقافة، فلم تصنع أديبا أو فيلسوفا أو كاتبا له شأن، المؤثرون كانوا من زمن سابق على 1952، أو تمت تنشئتهم في هذا الحين،

كما لم تسهم الوزارة التي تورمت أطرافها على أرض الوطن، في نشر المعرفة والتذوق الجمالي بالصورة التي عرفها الناس قبل سبعين عاما. لقد تضخمت ميزانيتها، وتنامت أجهزتها، وتكاثرت أعداد العاملين بها حتى ضاقت بهم الأماكن والمكاتب (عمارة العرائس مثالا)، دون أن تحرز إنجازات مهمة، كانت الحياة الثقافية قبل 1952 تعتمد الجهود الفردية والجمعيات الأدبية والثقافية دون أن تتكلف الدولة مليما واحدا، وكانت الجوائز الأدبية في معظمها من شخصيات عامة أو جهات أهلية باستثناء جوائز مجمع اللغة العربية.

اليوم باتت الجوائز الثقافية ذات ميزانية ضخمة يتحملها المواطن الكادح المظلوم، وتتوزع على نطاق واسع، ويحصل عليها أنصار الحكومات المتتابعة دون أن يكون معظمهم من المستحقين لها أدبيا أو ثقافيا. صحيح أن هناك قانونا وتصويتا، ولكن القانون مليء بالثغرات، والتصويت يعتمد الموظفين الذين يحسمون الأمر في نهايته. تقوم الجهات العلمية والثقافية بترشيح من تراهم يستحقون الجائزة في المستويات الأعلى، ويتقدم الأفراد بطلبات الحصول على الجائزة في المستويات التشجيعية، ويعرض الأمر على لجنة الفحص، وهذه اللجنة لها صلاحية غريبة! حيث تقوم بالموافقة على الترشيح أو حجبه عن التصويت! مثلا تقوم جامعة ما بترشيح أحدهم بعد موافقات متدرجة: القسم، الكلية، مجلس الجامعة، فيأتي أعضاء

لجنة الفحص، وقد يكون مستوى بعضهم الثقافي متدنيا (شهادة متوسطة)، فيحجبون الترشيح دون تقديم الأسباب، وهكذا تزري لجنة الفحص بكيان علمي كبير متخصص في المجال المتقدم إليه المرشح! وفي النهاية يبقى المرشح المراد فوزه أو منحه الجائزة مع آخرين لتتم الصورة الشكلية للتصويت الذي تحدده رؤية سابقة أو إشارة متفق عليها مع الموظفين، حيث يجمع المحظوظ أصوات الفوز، ويعلن عن تتويجه بالجائزة ولو كان لا يحسن الكتابة الإملائية ولا يجيد النحو والصرف، ولا يملك الموهبة المتميزة..

تقسيم الغنائم

هناك شبه عرف بين المهيمنين على الأمر، وهو تقسيم الغنيمة (الوزارة كلها غنائم)، بمعنى أن من لا يحصل على الجائزة هذا العام سيحصل عليها في العام التالي أو الذي بعده إن كان هناك من يتطلع إليها قبله. أو يمنح التقديرية مثلا هذا العام وتنتظره جائزة النيل بعد عامين أو ثلاثة، والأمر نفسه في الجوائز الصغرى: التفوق والتشجيعية، وبقدر إخلاص المرشح أو المتقدم للحظيرة الثقافية وخطابها، يكون حصوله على الجائزة أمرا محققا ولو تأخر بعض الوقت.

المحظور حصولهم على الجائزة هم من يتبنون الرؤية الإسلامية، حتى لو كانوا من أنصار السلطة الثقافية أو لا يبدون حنقا على أدائها، فهؤلاء مرفوضون على طول الخط. وكان من المفارقات

مثلا أن يحصل على الجائزة في مجال الدراسات الإسلامية شخص لم يتوضأ ولم يركع لله، وكتاباته نقول عن المستشرقين، ومواقفه عداء صريح للدين الحنيف، وتطرف بغيض ضده.. وقد يسأل بعضهم أي جامعة محترمة رشحته أو أي كيان علمي راسخ، قدمه للجائزة؟ والإجابة سهلة وبسيطة، القانون الذي وضعته الحظيرة يعتمد بعض التجمعات الفنية والأدبية الصغيرة مثل الجمعيات أو النوادي الفنية التشكيلية، لقبول ترشيحاتها، وعن طريق الإيعاز إليها يتم ترشيح من تريده الحظيرة وترفضه الكيانات العلمية المحترمة، كي تمنحه عطيتها! وهكذا يحصل من يسبّ الإسلام ويزري به على جائزة الدولة التي تجعل الإسلام في دستورها دينها الرسمي!

لقد مضت عقود لم يحصل فيها أزهري يتبنى رؤية الإسلام على جائزة تقديرية أو جائزة النيل. شخص أزهري واحد حصل عليها قبل سنوات، بطريقة غريبة، كان وزيرا للثقافة وبدا له أن يحصل علي الجائزة التقديرية، ولكن كيف يحصل عليها وهو وزير عامل، والقانون يمنع؟ قدم صاحبنا استقالته لمدة أسبوع تم فيه التصويت على المرشحين، وفاز معاليه بالجائزة، عاد بعدها إلى الوزارة يمتطي صهوة الانتصار، علما أنه لا يملك حصيلة علم أو فكر أو تأليف متميزة تؤهله للجائزة التي كانت تفخر أن من حصلوا عليها كانوا من عينة العقاد والزيات وطه حسين وتوفيق الحكيم ومحمد فريد أبو

حديد وعزيز أباظة ومن على شاكلتهم! أما عصر الحظيرة فكل شيء فيه مباح وجائز!

منح نفسه الجائزة

ولماذا نذهب بعيدا؟ في بعض المؤتمرات التي خصصت للشعر والرواية وتمنح من خلالها جائزة كبرى لأحد الأدباء المرموقين، قام أحدهم وكان- رئيسا للمؤتمر- بترشيح نفسه لجائزة المؤتمر! (وهذا لا يجوز أدبيا ولا خلقيا على الأقل)، وبالطبع حصل رئيس المؤتمر على الجائزة التي كانت الشاعرة الكبيرة الراحلة نازك الملائكة مرشحة لها، وكانت الصحف والمواقع والمجالس قد أجمعت أنها ستحظى بالجائزة لمكانتها وقيمتها، ولكن الباحث عن الغنائم اقتنصها لنفسه ولم يخجل كونه رئيسا للمؤتمر واللجنة التي تقرر الفائز!

وأذكر أنني كتبت في الأهرام عام 2013 ضمن عمودي اليومي (حفنة سطور) أطالب بإلغاء الجوائز الأدبية، حتى يوضع أسلوب جديد لمنحها يكون أكثر عدلا، وأفضل تعبيرا عن أصحاب المواهب الحقيقية الذين لا يجيدون مغازلة الحظيرة ومناغاة من يملكون تسيير أمورها، ولكن جاءت الرياح بما لا يشتهي السَّفِنُ!

للأسف تحولت وزارة الثقافة إلى قصعة مستباحة لمجموعات أو قل عصابات فاقدة الإخلاص والولاء لله، تجلس على قاعدتها

المؤثرة، وتقتات منها بوصفها «سبوبة مريحة» يتكسب منها تجار وسماسرة، لا يملكون مواهب حقيقية ولا قدرات أدبية، اللهم إلا ترديد «المانيفستو» الزائف، الذي يتحدث عن الحداثة والتنوير والتقدم ومنظومة العمل الثقافي واستراتيجية العدالة الثقافية،.. إلى غير ذلك من مصطلحات وشعارات لا وجود لها في الواقع.

ثم تأمل مهارج السينما والمسرح والأغاني والطبول والرقص وغيرها، وانظر حجم الأموال المهدرة عبثا، والمستفيدين منها، وفي النهاية لا يوجد عائد يذكر بالنسبة للمواطن العادي أو المثقف، أو الوطن الذي يدفع من دمه وعرقه، فهم لا يفيدون من ذلك شيئا؛ الفائدة تذهب إلى التجار والسماسرة الذين يوصفون بالفنانين والمثقفين وما هم بذلك، بدليل أنه لا توجد سينما ذات بال يذكرها الناس، ولا توجد أفلام ذات قيمة، ولا يفوز واحد منها في المهرجانات الدولية أو الإقليمية، لأنها سينما رديئة لا تعبر عن الوطن والمواطن، ويكفي أن تقرأ خطاب من يعملون بها من كتاب ومخرجين ومنتجين وممثلين. إنهم يتعاملون مع الأفلام بوصفها «شُغلا»- وليس فنا- يقتضي التسويق والتوزيع، وتحركه العبارة «التاريخية» التي يرددها مشاهدو السينما الشباب في بلادنا، وهي: «قصة ولا مناظر؟»، أي إن الفيلم فيه فكرة وموضوع وفن وجهد، أو مجرد مناظر تجري في غرف النوم، وبين العشاق في خلواتهم؟ إن

الممثل والممثلة اللذين يقومان بتمثيل فيلم «المناظر» ويعبران عن العلاقات الحميمة ويتعريان بمناسبة وغير مناسبة، تتحقق لهما شهرة كبيرة، وترتفع قيمتهما التجارية بما يحصلان عليه من أجر!

الفن والموعظة

المفارقة أن القوم تقام لهم مهارج توظف لها أجهزة الدعاية المرئية والمسموعة والمقروءة، وفيها تستعرض الأجساد، وتتنافس الممثلات على تعرية أكبر مساحة من أبدانهن، دون أن يكون هناك أفلام تحمل قضية أو تعالج موضوعا يعني الناس ويهمّهم، ويتواقح بعضهم حين يقول لك: الفن ليس موعظة، ومن يبحث عن الموعظة يذهب إلى الجامع!

هذه الوقاحة تنبت في رءوس تجار وسماسرة وهواة شهرة، وليس فنانين حقيقيين، إنهم يسمّون القصة والحوار والمشاهد «بالورق». تقول الواحدة أو الواحد منهم: الورق يريد ذلك، لم أقرأ الورق، طلبت تغيير الورق! انحطت تسمية القصة الأدبية وما يتعلق بها إلى لفظة الورق، أو يقولون الشغل متعب الشغل يجعلنا نسهر الليل، الشغل يكلفنا إنفاقا كثيرا.. إنه باعترافهم شغل وليس فنا.. والفارق بين الاثنين كبير!

إذا كانت رداءة السينما ملحوظة لدى قطاع عريض من الناس،

فالمسرح الذي تنفق عليه الوزارة أكثر رداءة، وإنتاجه دائما خاسر، وقد لجأ بعضهم إلى تقليد المسرح التجاري ليحقق عائدا ماديا، ولكنه أخفق أيضا، لسبب بسيط وهو أن الفن لا يصنعه موظفون، ولو كانوا بدرجة «فنان قدير»! كما يسمون بعضهم.

يترحم الناس على إسماعيل يس الذي قدم أفلاما ومسرحيات ذات قيمة معنوية، بإمكاناته المحدودة وقدراته المتواضعة في زمن قديم، ويشاهدها الناس حتى اليوم ولا يملّون من مشاهدتها، فقد كان مخلصا في عمله، ولا يقدح فيه ما يؤخذ على أعماله من سلبيات صنعتها السذاجة أكثر من الرغبة في الربح والرواج.

هل أشير إلى بعض الأعمال الفاشلة التي حاولت تغطية فشلها بإهانة الإسلام، وتصويره في صورة دموية، وربطته بالإرهاب، وفي الوقت ذاته قدمت صورا لامعة وجميلة للشيوعيين والملحدين والمنحلين، وشاربي الخمور، واللصوص الأذكياء، والنساء الفاجرات والعقائد الأخرى! إن مهارج السينما والمسرح والأغاني والطبول والرقص لا تؤتي ثمارا ناضجة بقدر ما تؤكد على إهدار أموال الشعب المسكين في سفه يؤذي ولا يفيد!

تجار وسماسرة

وبالمثل، فقد أضحت المؤتمرات والندوات والجوائز والتفرغ والنشر والسفريات وغيرها قاصرة على مجموعات التجار والسماسرة

وإن كانوا بياقات منشاة، وحلل مكوية، وأربطة عنق مستوردة من أفخم محلات الغرب.. إنهم يرددون ما تقوله الوزارة، وما تريده الأجهزة الثقافية، وينهضون بمهمات التلويث لمن يغضب عليهم الوزير أو التلميع لمن يرضى عنهم، وهكذا تضيع مليارات يحتاجها الشعب المظلوم في مظاهر فارغة، وسلوكيات تافهة، وأنشطة زائفة تحت مسمى وزارة الثقافة.

عرف كثير من أدعياء الأدب والثقافة سر الوزارة التي تمثل عبئا على ميزانية الدولة، فتسابقوا للاغتراف منها بطريقة وأخرى.. عجوز يتقاضى مرتبات ومكافآت كبيرة من مؤسسته الإعلامية، فتجده في كشوف المتفرغين بمقابل ضخم. أشباه أدباء يعملون في مؤسسات صحفية وثقافية أو تعليمية تفتح لهم الأبواب عن طريق الانتداب، ليتقاضوا مرتبات خرافية، في رئاسة قطاعات، أو تحرير سلاسل ثقافية، أو مجلات أدبية، أو لجان تقييم أو أنشطة لا يحضرها أحد!

يروى أن شخصا يقول كلاما عاميا ويسميه رفاقه الحظائريون شاعرا، عرف الطريق إلى أموال الـوزارة بالاستجداء والحيل المكشوفة، فكلما احتاج إلى بعض المال ذهب إلى مكتب الوزير، ومثّل دور المغمى عليه فيلتف حوله الموظفون، ويسعفونه ويبلغون الوزير بحالته، فيصرف له مبلغا إسهاما من الوزارة في علاجه! مع أن المتصلين بالحياة الثقافية الفاسدة يعلمون أن هذا الشخص كذاب،

ونصاب، ولص لم يتورع عن سرقة حذاء جديد لشاعر راحل كان معه في أحد المؤتمرات المحلية!

وفي الصراع السياسي بين السلطة وبعض الناس تدفع أجهزة النشر الثقافية مبالغ طائلة لبعض الصعاليك في هجائيات رخيصة كتبوها ضد ضحايا القمع والحرية وسجناء الضمير، ولا يجد المسئولون الثقافيون والصعاليك غضاضة في سلوكهم أو تناقضا في مزاعمهم وهم يتحدثون عن النضال والحرية والديمقراطية، بينما يُجْهِزون على النضال والحرية والديمقراطية!

سب الذات الإلهية

ولإرضاء بعض الجهات فإن بعض موظفي الهيئات الثقافية وخاصة من الشيوعيين، كانوا يجدون متعتهم الكبيرة في مصادمة المجتمع وقيمه بنشر بعض الكتابات الرديئة التي تتبني التجديف في حق الذات الإلهية وتحتفي بالجنس، وتعبر عن ضحالة فكرية وفنية في آن واحد. وما زال الناس يذكرون شيوعيا كان رئيسا لهيئة قصور الثقافة نشر ما سمي رواية (وليمة لأعشاب البحر)عام 1999، سبق نشرها في بيروت عام 1983، لكاتب باطني نصيري، من سورية- وصفوه بالبعثي- يدعى حيدر حيدر، كان رد الفعل الشعبي عنيفا وغاضبا، وخاصة من بعض الكتاب الغيورين على دينهم الذين كتبوا مقالات أو أصدروا كتبا (حسن نور، محمد عباس، محمد يحيي، جابر قميحة،

السيد أحمد فرج، إبراهيم عوض، كاتب هذه السطور،،،،وغيرهم)، وخرج طلاب الأزهر فى مظاهرات صاخبة شارك فيها بعض مسئولي الأزهر وعلمائه وسقط خلالها عدد من الجرحى والمصابين، وامتد الغضب إلى مجلس الشعب حيث تقدم بعض النواب بأسئلة وبيانات وطلبات إحاطة واستجواب للوزير المختص لإقالته، ولكن مضت العاصفة دون أن يتأثر الوزير، بعد أن شكلت لجنة موالية للنظام، قامت بصياغة تقرير مائع، في ظل حملة صحفية ودعائية مضادة، قادها الشيوعيون ومن على شاكلتهم تضامنا مع الكاتب الباطني الذي قيل إنه كان عضوا في الحزب الشيوعي العراقي! وقد وصفوا هؤلاء المحتجين بجماعات التشدد الديني أعداء التنوير والثقافة.

كشفت الأزمة عن طبيعة القوى الاجتماعية، وأثبتت أن الأقلية الشيوعية المعادية للإسلام تمتلك مناصب ونفوذا يفوق ما تملكه الأكثرية الساحقة، وأن هيمنة الأقلية على الأكثرية وخاصة في الإعلام والثقافة والتعليم أقوى مما كان متوقعا، حيث عصفت الأزمة بحزب العمل الذي تم تجميده، وصحيفة «الشعب»، لسان الحزب، أقوى الصحف الحزبية المعارضة، حيث تم إغلاقها وإسكات الأقلام التي طالبت بمحاكمة من ارتكبوا جريمة النشر للرواية الملعونة، ولم يحاكموا، بل عوقب من انتفضوا من أجل الله والدين والحرية والثقافة الحقيقية، ودفعوا ثمنا غاليا. كان الرأي

العام يتساءل: لو أن شخصيات الرواية الملعونة سبّوا أو شتموا حاكما عربيا أو مسئولا كبيرا، مثلما سبّوا الذات الإلهية وشتموها على صفحات الرواية، هل كان الشيوعيون ومؤيدوهم يقبلون بنشرها والإشادة بها ويدخلون في تحدٍّ سافر مع الشعب المسلم؟

الجهل المقدس

قارن ذلك بما حدث حين نشرت مجلة روز اليوسف العريقة (السبت 13 يونيو 2020) على غلافها صورة لكاهن غير مسلم مع رمز إسلامي، وعليها عبارة الجهل المقدس.. أساقفة يتحالفون مع كوفيد ١٩ ضد البابا. لقد قامت قيامة الكنيسة، وعلى الفور غيرت المجلة صورة الغلاف والموضوع وأبقت على الرمز الإسلامي نموذجا للجهل المقدس(!!)، مع التشهير بالمسلمين الإرهابيين الذين يحملون السلاح لقتل المواطنين، وأُحيل رئيس التحرير للتحقيق، ووقف المحرر المسئول عن الملف القبطي إلى حين الانتهاء من التحقيقات. بسبب ما تضمنه الغلاف من إساءة للكنيسة، كما قُدِّم اعتذار للكنيسة من جانب الهيئة المسئولة عن الصحافة، التي طلبت أن تقوم المجلة أيضا في العدد التالي بالاعتذار عن الإساءة!

من نشروا الرواية (وليمة لأعشاب البحر) المسيئة للذات الإلهية والإسلام والأمة لم يعتذروا أبدا، بل تمادوا في الحديث عن حرية الفكر والإرهاب الإسلامي!

لقد تغاضوا عن رداءة الرواية وضعفها بكل المقاييس الفنية والجمالية واللغوية، وقد أقرّ بذلك الناقد اليساري «رجاء النقاش» في حينه، ولكن الأقلية المعادية للإسلام والحرية أرادت أن تثبت وجودها بمساعدة بعض الجهات، وقد نجحت في تحويل الجريمة إلى ميدان انتصار لها ولسياستها، والتمكين لفرض ثقافتها على المجتمع بما تنشره وتقوله، من آراء مخالفة لمفاهيم الإسلام وتصوراته وقيمه، و للأسف لم تحاسب على ما اقترفته ضد الدين والأخلاق والأدب جميعا!

استجواب الوزير

لم يكتف الشيوعيون وأشباههم بتحدي الوليمة، فأصدروا ثلاث روايات أخرى تحمل عناصر الرواية الملعونة (وليمة لأعشاب البحر)، أثارت غضبا شعبيا عاصفا، ووصل الأمر إلى استجواب الوزير المختص (فاروق حسني) فقرر إقالة مسئولي النشر وعدم توزيع الروايات. ودافع فاروق حسني عن قراره في حديث خاص لوكالة الأنباء الفرنسية، وحمّل ـ«اليساريين» مسئولية إثارة أزمة الروايات الثلاث، التي عدّها «مُسيئة للقيم الاجتماعية» وقال: «إن هذه الروايات التي تستخدم لغة سوقية في وصف المشهد الجنسي، قصد منها إثارة أزمة في المجتمع المصري، وأن من يكتب مدافعا عنها في الصحافة هم يساريون لا يقف إلى جانبهم أحد»، وزعم

أنه وقف إلى جانبهم في أزمة رواية «وليمة لأعشاب البحر» لأن دوافعها كانت سياسية، وأنها كانت مفتعلة ومدفوعة من الخارج كما يزعم، ولكنه أضاف: «.. وقفت في مواجهتهم في الأزمة الحالية لأنها داخلية، ويقع على مسئوليتي كوزير الدفاع عن القيم والأخلاق الاجتماعية».

المفارقة أن مرتزقة الوزارة اليساريين أصدروا بيانا لإدانة ما أسموه إجراءات البطش المادي والمعنوي والتنكيل الفكري الذي يقوم به فاروق حسني في الحياة الثقافية، وإعلان مقاطعة وزارة الثقافة وكافة أنشطتها من معارض وندوات وأمسيات، سواء في معرض الكتاب الدولي وأنشطة المجلس الأعلى للثقافة، وأنشطة الثقافة الجماهيرية، وكافة إصدارات وزارة الثقافة، وكان من الموقعين على البيان: جمال الغيطاني، وأسامة أنور عكاشة، ويوسف القعيد، ويوسف أبو رية، وفاروق عبدالقادر، وعبد العظيم أنيس، وعزت القمحاوي، وفريدة الشوباشي. وبالطبع لم تحدث مقاطعة ولا يحزنون، بل واصل القوم إفادتهم من خيرات الوزارة ونعيمها، واتضح فيما بعد أن عملية إقالة مسئولي النشر في قصور الثقافة، كانت عملية شكلية لامتصاص غضب الشعب المسلم، وأن المُقالين تمت مكافأتهم بما يضاعف دخولهم من مناصبهم التي تركوها بصور أخرى، فقد منحوا جوائز لا يستحقونها، وصاروا كتّابا بأكبر

الصحف مقابل مكافآت جيدة، فضلا عن نشر كتبهم الرديئة التي لا يقرؤها أحد وتعود إلى المخازن مقابل تعويضات ضخمة.

وقال الشيوعي على أبو شادي رئيس الهيئة العامة لقصور الثقافة السابق إن الدولة كانت مضطرة لإقالته من منصبه، بعد أزمة الروايات الثلاث، ورواية «وليمة لأعشاب البحر» للروائي حيدر حيدر وقال: إن فاروق حسنى (وزير الثقافة) أخبره خلال احتدام الأزمة أنه مضطر لإقالته، وأكد أن فاروق حسنى دافع عنه، عكس ما ردد بعضهم، ولم يهتز بسبب هذه الأزمة، خصوصا أنه قبلها وقف في مجلس الشعب ودافع عن لوحة عارية كانت غلافا لمجلة «إبداع» ولكن كانت هناك ضغوط من الرئاسة عليه، اضطرته لإقالته من منصبه، وبعد عدة أعوام تقابلا وقال له حسنى: «الريح كانت عاتية يا علي» وقال أبو شادي إنه غير نادم على دفاعه عن حرية الإبداع(؟؟) وإنه خرج من هذه الأزمة نجما(!) ويكفى أنه خرج بشرف(!) من الهيئة وليس بقضية انحراف مالي مثلا، على حد قوله!

لا ريب أن الفساد متأصل في وزارة الثقافة منذ عقود طويلة، وخاصة بعد أن سيطر عليها الشيوعيون والانتهازيون وأهل الهوى. المقارنة بين حال الثقافة قبل إنشاء الوزارة وبعد إنشائها ستصب في صالح ما قبل.

لقد شاركت في بعض أنشطة الوزارة مشاركة هامشية بحكم العمل الأكاديمي، ونشرت كتابا واحدا من كتبي من بين أكثر من مائة كتاب في الهيئة الرسمية على عهد الدكتور أحمد هيكل، وكتابا آخر في قصور الثقافة بعد عشر سنوات قضتها المخطوطة في دهاليز عمارة العرايس، وكتيبا للأطفال، وتلقيت درعا من الوزير بمناسبة مؤتمر أدبي أقيم في محافظتي(البحيرة) عام 1998م باقتراح من صديق كريم مع بعض الأدباء والكتاب، منهم: عبد الوهاب المسيري، أسامة الباز، وقد تعرفت على أسامة بعد التكريم فوجدته ودودا ومتواضعا، ومعروف أنه كان يركب المترو في تنقله اليومي بين قصر الاتحادية مقر الرئاسة، والمعادي حيث يسكن، ولم تدفع به وظيفته بجوار رئيس الدولة إلى التكبر أو العجرفة، وأعطاني رقم هاتفه لأتصل به، وعرفت أنه كان متزوجا من ابنة العالم اللغوي الشهير تمام حسان، شقيق أستاذي عبد الحكيم حسان في دار العلوم. كان أسامة محبا للأدب والفنون الجميلة ويحضر الندوات والمعارض، ويشارك في المناقشات الثقافية، ولعل هذا ما أهله ليكون مفاوضا سياسيا نادرا، وكان بعضهم يصفه بالثعلب في أثناء التفاوض مع العدو اليهودي بكامب ديفيد، وكان المفاوضون اليهود يقدرون مواهبه ويستعدون جيدا عند مواجهته لهم، رحمه الله.

دفاعا عن القصعة

لقد كتبت كثيرا من المقالات عن سلبيات وزارة الثقافة وطالبت بإلغائها باستثناء مركز الترجمة على أن تكون المترجمات خاصة بالعلوم البحتة، وتترك ترجمة الأدبيات للقطاع الخاص. أما الجوائز والمؤتمرات والندوات والنشر والسينما والمسرح وغيرها فتذهب إلى الجامعات أو الجمعيات أو الأفراد الذين يعنيهم أمر النشاط الثقافي. وأظن أن من الصعب أن يسلّم المستفيدون من غنائم الوزارة بإلغائها، فهم يقاتلون دفاعا عن قصعة مجانية مستباحة لمن يملك الشطارة والفهلوة والتملق والنفاق الرخيص وخدمة خصوم الإسلام، والعمل مخبرا غشيما أو بصّاصا قبيحا ليفتك بمنافسيه ومن يظن أنهم سيخطفون ما في يده!

قد يتساءل بعضهم عن مصير الموظفين والعاملين في الوزارة وأعتقد أن كثيرا منهم سيعود إلى موقعه الأصلي الذي انتدب منه، أما الآخرون فيمكن تحويلهم إلى الوزارات والمصالح الحكومية التي تشكو من قلة العمالة، في التعليم والصحة والزراعة والري، والجمارك، والشهر العقاري، والأحوال الشخصية وغيرها...

لقد قارنت ما تقوم به ساقية الصاوي، وهي منشأة فردية متواضعة، تعمل على عقد ندوات ثقافية، وتعرض بعض الأفلام

والمسرحيات، وتتيح فرصة لعرض اللوحات التشكيلية، والحفلات الموسيقية والغنائية الراقية، وقد أقيمت الساقية في بعض الفراغات تحت أحد الجسور الخرسانية بمنطقة الزمالك، وقد أشاد كثيرون بنشاطها الجيد، مع أنها تتقاضى مقابلا نقديا لحضور هذا النشاط!

وهناك ما يسمى بمؤسسة ساويرس الثقافية، ومقرها منطقة الجونة على البحر الأحمر، وتمنح ساويرس جوائز أدبية في القصة والرواية والدراسات النقدية، قيمتها النقدية عالية وتقرب من القيمة التي تمنحها الدولة أو زارة الثقافة في جوائزها، وتخصص لها محكمين غير متعاطفين مع الفكرة الإسلامية وعديد منهم شيوعي مستأنس، وهم على أية حال يمنحون مكافآت سخية، ولأن المؤسسة طائفية صريحة، فهي لا تمنح جوائزها لعمل يتبني التصور الإسلامي، بل إن بعض الأعمال الفائزة تمكّن للفرز الطائفي، وتعالج الإرهاب من خلال ربطه بالإسلام.

بالإضافة إلى منح الجوائز الأدبية، تقوم ساويرس بنصب مهرجان سنوي للسينما، تستقطب فيه معظم الممثلين والممثلات في مصر والعالم العربي، والمشتغلين بالعمل السينمائي، وتجلب كثيرا من أجهزة الدعاية ورجالها، وتتبارى الممثلات ونساء المهرجان في العروض شبه العارية، وتمنح المؤسسة جوائز لبعضهم أو لأفلامهم التي لا يجمع مشاهدوها على جودتها.

على أية حال، تبدو مؤسسة ساويرس منافسا في بعض أنشطتها لوزارة الثقافة، وإن كانت الحصيلة متساوية في عدم الإفادة الحقيقية للأدب أو الثقافة أو الفن.

يبقي سؤال في هذا السياق، يمكن أن أطرحه على نفسي:

هل لدينا مثقفون؟

الإجابة: أجل، وكلا.

أجل! لدينا مثقفون حقيقيون، ولكنهم محجوبون لا يظهرون أمام الناس، لأن ثقافتهم أو فكرهم لا يعجب وزارة الثقافة، ولا يتناغم مع أفكار قادتها، ورؤسائها، فلا يدعون إلى مؤتمراتها، ولا يحصلون على جوائزها، ولا يكتبون في مجلاتها وصحيفتها، ولا ينضمون إلى لجانها ولا تناقش أعمالهم في ندواتها وقصور ثقافتها، ولا تنشر مؤلفاتهم في هيئاتها الرسمية!

كلا! لا يوجد لدينا مثقفون في الواقع الثقافي الرسمي، الموجودون رجال تشهيلات، يملكون الفهلوة، والشطارة، ومهارة تحريف الكلم عن مواضعه، وهم كما قال أحدهم في صراحة غير معهودة:»اربط الحمار في المكان الذي يريد صاحبه»، إنهم في هذا الوضع من أجل مصالحهم الخاصة، ومنافعهم الذاتية، الوطن ليس في حسبانهم وإن تغزلوا بمصر وحبها والتضحية من أجلها، فهم في

حقيقة الأمر ليسوا على استعداد للتضحية بجنيه واحد، لا يشتري مصاصة لطفل صغير! ويقفزون من السفينة عندما تتعرض للخطر، وشواهد التاريخ القريب خير دليل على ذلك.

المثقف العضوي

إن موقف رجال التشهيلات في الثقافة المصرية يطرح الفكرة المعادة المكررة حول المثقف العضوي والمثقف الاستعمالي أو ما يسميهم بعضهم بالمثقف (الخـدام) وهو جريمة متحركة ضد الأمة! المثقف العضوي تحدث عنه الكاتب الشيوعي الإيطالي أنطونيو جرامشي(1891 -1937) ودفع حياته من أجل ذلك، حيث مات تحت التعذيب بعد اعتقاله بأوامر موسوليني. ويعد جرامشي مؤسس مفهوم «الهيمنة على الثقافة وسيلة للإبقاء على الحكم في مجتمع رأسمالي». ويطلق على فكره اسم الجرامشية أو فلسفة البراكسيس (النشاط العملي والنقدي- الممارسة الإنسانية والمحسوسة). وتضحي مهمة المثقفين نشر تصور الطبقة للعالم وتأكيده في وجه مثقفي وتصورات طبقات النظام القديم أو النظام الذي يرهص بالولادة.

المثقف العضوي لدى جرامشي جزء من حركة الناس ومعاناتهم، ولكن المثقف الاستعمالي هو رجل التشهيلات الذي يقوم بتسويغ الاستبداد والظلم الاجتماعي، ويقنن للاستغلال الطبقي،

إنه الفهلوي الذي يخطف ما يُعدّ غنيمة ثم يجري، دون أن يتحمل مسئولية أدبية أو خلقية، وللأسف، فإن المثقفين الاستعماليين هم الذين يتصدرون المشهد في بلادنا العربية، وتقدمهم وسائل الدعاية الموجهة بوصفهم قادة الثقافة ورواد الفكر وأصحاب الإبداع المتفرد! هل أقدم نماذج منهم؟ النماذج حاضرة في كل مكان....

في زمن مضي كان المثقف العضوي بالتصور الإسلامي أو غير الإسلامي، حاضرا بقوة في مجتمعنا، كان يدفع الثمن سجنا وغربة ونفيا ومطاردة وبيعا لمكتبته كي يأكل، من أول عبد الله النديم ومحمود سامي البارودي ومحمد عبده وأحمد شوقي وعلى الغاياتي ومحمد فريد وعباس محمود العقاد، وتوفيق دياب وأحمد أبو الفتح وغيرهم..

المثقف العضوي الآن غائب أو مغيب والحاضر بقوة هو المثقف الاستعمالي. لماذا عشت حتى أرى هذا الزمان!

3 - القبض على الجمر..!

من نعم الله علينا أن تكون لنا أسر نحيا معها رحلة الحياة بحلوها ومرها، وأن يكون فيها أبناء صالحون، يؤدون واجبهم ويعملون على الاستزادة من العلم والمعرفة، ويقيمون الصلاة ويصومون رمضان، ويشعرون بغيرهم من الفقراء والمحتاجين والمتعبين.

وفي مناخ سيولة القيم يصعب أن تحكم سيطرتك على أسرتك، فالتأثير والتأثر متبادل داخل المجتمع بقوة التفاعل والاندماج، وبحمد الله نشأ أبنائي فيما يشبه العزلة عن أقرانهم، ولعل ظروف مرضي وبقائي بالمنزل جذبتهم للبقاء في البيت، وعدم الاحتكاك بالخارج، إلا لضرورة من الضرورات، ومع أن العيش في القوقعة له ثمنه الغالي سلبيا، حيث يقع أحدهم في مشكلة دون أن يدري، وذلك لعدم معرفته بالناس جيدا، وقلة خبرته في التعامل مع الآخرين، فإن المكسب الأكبر هو البعد عن مناطق الانحراف والسقوط. كل مشكلة خارج السلوك الطيب يمكن حلها والتغلب عليها.

رجل طيب

أما مشكلات السلوك فإنها تعني الكارثة. وأحمد الله أن أبنائي كانوا بصفة عامة في دائرة معقولة، وإن كانوا لأسباب شتى، لا يحافظون على ما يملكون، ولا يفكرون في الغد من حيث الحرص على الوقت والمال والممتلكات، فقد يهدرون أوقاتا طويلة في غير ما فائدة، وقد يقدمون ما عندهم للآخرين بسهولة، ودون مساءلة، ويتساهلون في التعاملات التجارية، مع أن ذلك يغري غيرهم بالطمع الذي يصل إلى حد الجشع. وقد يفسر بعضهم موقفه تفسيرا عمليا بأنه يسعى لهدف أكبر، ولكنه لا يدرك أن من يتعاملون معه يتشجّعون على تضييع الحقوق، حين يقولون: فلان طيب، أي يمكن أخذ ما لديه دون أن يعترض. وأظنهم ورثوا مني هذا الأمر، فثقتي غير المحدودة في الناس، وتصديقي لما يقولونه جعلتهم ذات مرة يقولون: إن هذا الرجل- يقصدونني- لا يحب الفلوس، أو لا يسأل عن الفلوس!

صدمتي في هذا الكلام، جعلتني أراجع نفسي في آخر العمر، وأتساءل عن السبب فيه.. بالطبع يعود السبب إلي، فالتساهل والطيبة الزائدة عن الحد، والخجل أو الحياء في الحديث عن الأمور المالية، جعلني مستهدفا للطمع بل الجشع.

سوف نختلف

كنت في الماضي حين يأتي مقاول أو حرفي أو عامل، وأسأله كم تتكلف هذه المسألة؟ فيقول لي: لن نختلف! وأصدق ما قال، وعند الحساب أجد الاختلاف حاضرا، فالقيمة التي يقدرها مضاعفة، ويشفعها بأيمان مغلظة كاذبة، ويبدأ في الصياح، ويتجمع الناس ويناصرونه ضمنيا بحكم أنني غني كما يتصورون، ويقولون: ادفع له؛ لقد تعب وبذل جهدا، أو إنه محتاج واجعل ما تعطيه صدقة، مع أن الصدقات لها حساب آخر، وتذهب إلى مستحقيها، وأشعر مع هذه الحالة أو غيرها، أن الأمر ينتهي بهزيمتي وانتصار الطمع والجشع!

بعد حين أخذت أجمع شتات نفسي، وأسقط الحياء والخجل عند الاتفاق، وقبل البدء في العمل أسأل من لديهم خبرة: كم يتكلف هذا الأمر؟ وأحصل على إجابات متعددة، فأحسب متوسط القيمة، وأضيف من عندي ما يعد إكرامية، وأقول للشخص الذي سيعمل: كم تأخذ؟ فيرد بالرد إياه: لن نختلف، فأبتسم وأقول له: سنختلف. فيضحك، أقول له لنتفق أولا، فهذا خير لي ولك، ولأني أكون قد عرفت القيمة المعقولة كما سبقت الإشارة، أضيف إلى ما قاله بعض الزيادة من عندي، وأشترط أن ألا يطلب مني أجره كله قبل الانتهاء من العمل، فقد كان بعضهم يأخذ أجره، ثم يتركني ويتعلل بأسباب كاذبة للتقصير في العمل: ابنه مريض، زوجته تلد،

هو نفسه كان في مشكل، وكل هذه الأسباب وأمثالها غير حقيقية، وأظل أستجديه ليقوم بعمله، ولكن دون جدوي، كأنه يطبق فلسفة «اخطف واجر»، أو بلغة العامة «انتش واجر»!

الصحف والمواقع

هذا بعض ما تعلمته في سن متأخرة، بسبب سيولة القيم، والجهل في التعامل مع الآخرين ماليا واجتماعيا، ويبدو أن أبنائي يسيرون على الدرب نفسه، ولكن هل يصلون إلى المرحلة التي يسقطون فيها الخجل عند تعاملهم المادي مع الناس؟

لا أظن!

واضح أنهم لا يحسنون التجارة، ولا يفقهون أمرها، وقد عرضت على بعضهم أن يعمل في مشروعات تربطهم بالعمل والزمن، بدلا من البطالة والفراغ، ولكنهم لم يستجيبوا.. فمتابعة الصحف والمواقع والقضايا العامة على الهاتف الذكيّ أكثر أهمية لديهم من أشياء كثيرة.

إنهم لا يحسنون تقدير قيمة المال، يظنونه أمرا ميسورا، وأنه لا ينفد، وأنه متاح عند الطلب. لست ممن يهتمون بأمر المال أو يضعونه أولوية قصوى، ولكنه ضرورة لتسيير الحياة وتيسيرها، هو وسيلة وليست غاية، وخير لك أن تجد ما تنفقه موجودا في بيتك، بدلا

من أن تمد يدك للآخرين الذين قد يتقاعسون عن مساعدتك، أو نجدتك، ولذا فالتفريط في حقك المالي لدى الآخرين، أو التقليل من أهميته مهما كان ضئيلا، هو أمر غير جيد، بل غير مقبول.

أتركهم يفكرون

من الطبيعي أن يقتدي الابن بأبيه، حتى لو بدا أحيانا أنه يريد أن يعبر عن شخصية مستقلة، فالأب صورة مركوزة في داخله بحكم التربية والجينات، لا يستطيع أن ينفصل عنها، أو يبتعد، حتى لو بدا كذلك، وفي كل الأحوال فالابن حين يجد والده يصلي يعلم أن هناك شيئا اسمه الصلاة، وإن وجده يقرأ أو يكتب تترسخ في ذهنه فكرة القراءة والكتابة، ولو لم يمارسها، ثم لا ريب أن الوالد أو الوالدة إذا كان أحدهما أو كلاهما على طريق مغاير، فسوف يتأثر الابن أو البنت بذلك.. وقد آثرت ألا أتدخل بفرض أفكاري أو آرائي على أبنائي، أتركهم يفكرون، ويعتقدون ما يشاءون، وأتدخل برأيي كأني صديق لهم. لم أقل لأحدهم لا بد أن تحرز مجموعا في الثانوية العامة لتكون طبيبا أو مهندسا أو صيدلانيا أو إعلاميا أو دبلوماسيا مرموقا كما يتصارع الناس مع أبنائهم، لتحقيق أمنياتهم. كان كل منهم يعمل بطريقته ويغار من شقيقه إذا أحدث تقدما، وكان بعضهم تأخذه شطحات غريبة، كأن يجعل الرافعي والعقاد والمنفلوطي وأمثالهم النموذج العلمي والأدبي الذي يقتدي به في التحصيل الثقافي ونمط

الحياة، ويعيش مرحلتهم القائمة على التحصيل الذاتي للعلم دون الانتظام في المدرسة أو الخضوع لمناهجها، ويقول: ماذا تجدي الشهادات، أو تغير من طبيعة المعرفة؟ إنها لا تصنع أديبا ولا كاتبا ولا صحفيا. أمام هذا الرأي لا أستطيع أن أصادره، ولكن أذكّره أن زمن العقاد والرافعي والمنفلوطي كان مختلفا، وأننا نعيش في عصر المواضعات الرسمية والقانونية، ولو أن الرافعي أو العقاد أو المنفلوطي ذهب إلى جهة ما ليعمل فيها موظفا أو معلما أو باحثا أو غير ذلك، لقال له المسئول عن التوظيف: في أي كلية تخرجت؟ لأن الحد الأدنى للوظائف اليوم هو الليسانس أو البكالوريوس، ولو كان المؤهل أقل من ذلك فإن فرصة صاحبه لا تتحقق إلا في الوظائف العمالية أو الخدمية المتواضعة.

حفظ القرآن

الأمر الذي أحزنني هو أنني لم أستطع أن أجعلهم يحفظون القرآن بانتظام لدى المحفّظين، كانوا في مرحلة الطفولة خارج مصر، ويحفظون النصوص القرآنية في مناهج التربية الدينية، وهي قليلة، وكنت أقوم بتحفيظ بعضهم آيات أو سورا قصيرة إذا تيسر لي الوقت وجلست خاليا من الالتزامات العاجلة أو الضرورية.. ولكنهم فيما بعد حاولوا بمبادرات ذاتية أن يحفظوا ما استطاعوا، وتلاوة أجزاء عديدة على فترات وكنت أصحح لهم النطق والتلاوة، وأحاول الآن

مع حفيداتي أن ينتظموا في الحفظ، ولكنهم للأسف يعيشون في أماكن مختلفة، وتتاح لهم فرصة محدودة في الإجازة الصيفية، وهناك محاولات تقوم بها بعض أمهاتهن من خلال محفّظات عبر النت..

في زمننا البعيد كان المحفّظون ضرورة تعليمية سواء كانوا في كتّاب أو منزل أو مسجد، ولكن الأمر اختلف منذ عقود، فألغيت حلقات التحفيظ في المساجد، وأُنهي عهد الكتاتيب تماما، ولم يبق إلا التحفيظ في بعض البيوت، وكان بعض المحفظين يتلقى مكافآت ضئيلة ولكنها كانت مشجعة في ظروفهم المعيشية الصعبة، عملا بالمثل الذي كان يقول: النواة تسند الزير!

يبدو أن تيار العصف بالإسلام كان قويا، وذلك حين قام أعداء الإنسانية ولصوص العالم الكبار الذي يسرقون الدول الضعيفة وثرواتها، بربط الإرهاب بالإسلام، وأصبح من يتبنى رؤية الإسلام إرهابيا في عرف دعاة القتل الإلهي في عواصم الغرب الاستعماري ووكلائه في بلاد المسلمين حتى من يحفظ القرآن، وأذكر أن صحفيا صليبيا من دولة غربية زار الكتاتيب في بعض الدول الإسلامية، فوصفها بأنها قنابل إرهابية موقوتة!!

تغيير المناهج

أذاعت قناة i24news العبرية ونشرت على موقعها الإلكتروني في 16 يوليو 2023 أنه تم تغيير مناهج التعليم السعودية وإزالة

محتويات مناهضة للعدو الصهيوني من الكتب المدرسية، ومنها الإشارة إلى اليهود على «أنهم قرود وخنازير يعبدون الشيطان ووصفهم بأنهم خونة بطبيعتهم وأعداء لدودين للإسلام»! كما نقلت عن موقع «واينت» الصهيوني تقريرًا يبيّن الثورة التي قام بها ولي العهد السعودي، محمد بن سلمان، وانعكست أيضًا في إصلاح وتغيير محتويات الكتب المدرسية منذ وصوله إلى السلطة.

صارت الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي تتناول اليهود وتاريخهم وسلوكياتهم محظورة، في مناهج التعليم العربي، وخاصة التربية الدينية، التي جعلتها بعض الدول العربية مادة هامشية لا تضاف إلى المجموع، ولا يهتم بها التلاميذ، بل إنها ألغيت من امتحانات الثانوية العامة في زمن الجائحة (الكورونا)!

الكائن المتوحش!

في الوقت نفسه لم يغيّر الغزاة اليهود مناهجهم التي يلقنونها لأبنائهم في المدارس والجامعات بفلسطين المحتلة، ولم يستجيبوا لبنود المعاهدات التي وقعت معهم في كامب ديفيد ووادي عربة وأوسلو، وما زال الطالب اليهودي يدرس الصورة الزائفة عن العربي المسلم، فهو الكائن المتوحش الهمجي القاتل اللص الذي يعشق النساء، ولا يفكر بعقله، ويسعى للنصب والاحتيال، وهو

سارق فلسطين والحضارة اليهودية[1]، ويفتقد الرحمة والإنسانية، ولذا يجب قتله، وعدم الرأفة به!

ومن الطرائف المحزنة أن ترسيخ ضرورة قتل العربي تبدأ منذ الطفولة في التعليم اليهودي، حتى في مناهج الرياضيات تأتي مسألة الجمع على النحو التالي: قتل جندي يهودي شجاع خمسة من العرب الأشرار، وقتل جندي يهودي شجاع آخر أربعة منهم، فكم حاصل الجمع؟

هكذا يتربى أطفال الغزاة القتلة على سفك الدماء العربية البريئة، دون أن يقولوا لهم إن العرب المسلمين كانوا من أنقذ اليهود على مدى التاريخ الإسلامي من عملية الاستئصال الصليبية في الأندلس ورحبوا بهم ليقيموا في المغرب العربي الكبير ومصر، وفتحوا لهم صدرهم في تركيا العثمانية، وما زالوا يعيشون في أمان داخل البلاد العربية.

نحن العرب المسلمين نغير مناهجنا الآن استجابة للضغوط الصهيونية الأميركية دون مقابل!

الغزو الثقافي

وكانت الولايات الأميركية المتحدة قد مارست ضغوطا على بعض الدول العربية عقب تفجيرات سبتمبر 2001 في برجي

(1) (ينظر: حسن العطار، موقع إيلاف، الجمعة 27 أغسطس 2021).

التجارة بنيويورك، وأعلن الرئيس الأمريكي وقتها «جورج بوش الابن» في خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في 23 سبتمبر 2003م أن بلاده تعمل على إضعاف الأيديولوجيات (يقصد الإسلام!) التي يتهمها بتصدير الإرهاب في منطقة الشرق الأوسط. والخطاب كان مهما للغاية لأنه يأتي من رئيس دولة كبرى في مناسبة دولية وأمام محفل عالمي.

وهو ما دفع بعض الكتاب العرب إلى عدّ ذلك غزوا ثقافيا أميركيا يهدف إلى احتلال العقل العربي، وتغيير معالم المنطقة العربية وفرض القيم الثقافية والمبادئ الأمريكية، وتغيير منهج التفكير العربي، وتشويه الفكر التحرري لكل الحركات المناهضة للتبعية الأمريكية والصهيونية. فالغزو الثقافي من الداخل لا يحتاج لجيوش غازية، وهو أكثر خطورة من الغزو العسكري لأنه يضمن في حالات الضعف الراهنة دوام الهيمنة على الإرادة الوطنية والثروات والإمكانيات القومية برمتها، فضلا عن فرض مناهج تعليم جديدة تعمل على تذويب الهوية الثقافية العربية والإسلامية، والتراث الديني والتاريخي، في محاولة لإزالة العداء العربي والإسلامي لكل ما هو صهيوني أو أمريكي متصهين. والمؤسف حقا، أن كثيرا من الدول العربية استسلمت لهذه المطالب، وقد أعطت دولة خليجية عربية مسؤولية تطوير مناهجها الدراسية إلى مؤسسة أمريكية (Rand Corporation).

الإرادة الاستعمارية

حملة ربط الإسلام بالإرهاب شكلت ضغطا على بعض الدول الإسلامية بالفعل، فأغلق بعضها الكتاتيب، ومنع تحفيظ القرآن الكريم من خلال الرعاية الرسمية، واستجابت هذه الدول لإرادة الدول الاستعمارية وغيرت المناهج في التربية الدينية واللغة العربية، وحذفت الآيات والتاريخ فيما يتعلق بالجهاد واليهود والنصارى، وعملت الدراما والسينما العربية على ترسيخ صورة ذهنية للمسلم المتديّن حافظ القرآن، وهي صورة القاتل الجاهل الفج الهمجي المتخلف، في الوقت الذي تقدم فيه الشيوعي والطائفي والعلماني والليبرالي وغير المتدين بصفة عامة، في صورة زاهية جميلة إنسانية، تخدم عدو الإسلام الذي يجرد جيوشه لقتل الملايين في العراق وأفغانستان وسوريا وفلسطين وليبيا والساحل الإفريقي وإفريقية الوسطى وغيرها.. ولا يقول له أحد أنت إرهابي، أو ظلامي، أو متخلف، ولا يرغمه أحد على عدم قراءة الكتاب المقدس، أو يطلب حذف نصوصه وتاريخ الحروب الصليبية والغزوات الاستعمارية من المناهج أو الأدبيات التي يدرسها تلاميذه.

لافتات شتى

هناك استهداف للقرآن الكريم منذ زمن بعيد، وتجنّد قوى النهب والهمجية الاستعمارية العالمية نخبا متنوعة في بلاد المسلمين

لفصم العلاقة معه، ورفضه، أو على الأقل تشويهه وإهماله، تحت لافتات شتى: التنوير، الحداثة، ما بعد الحداثة، العولمة، الليبرالية، العلمانية، التقدم، الطليعية...إلخ، وهي أسماء براقة تخدع البسطاء والسطحيين وتناجي رغبة جامحة لدى أهل الهوى!

حفظ القرآن أساس الحفاظ على الهوية بالنسبة لأبناء المجتمع على اختلاف معتقداتهم، وهو الطريق إلى سلامة اللغة ونطق الكلمات بطريقة صحيحة، فضلا عن بركة تعمّ من يحفظه واطمئنان نفسي يحل بمن يحمله، وقد لاحظت أن معظم الطلاب الفائقين فيما يسمى كليات القمة بالجامعات المصرية يحفظون القرآن الكريم، ويتقدمون زملاءهم الآخرين في المستوى العلمي والتحصيلي. ولذا يحقد عليهم من يسمون أنفسهم دعاة التنوير، ويعدّونهم سبب التطرف والإرهـاب(؟؟) فالتنوير بمفهومه الغربي يعني الإيمان بالتجربة وحدها، والثورة على الكنيسة، وفصل الدين عن المجتمع والدولة، وبالتالي عدم الإيمان بالغيب أو الوحي، ولذا يقف حفظ القرآن عقبة في وجه مخططهم الماسوني! فضلا عن كون حفظة القرآن الفائقين يمثلون عقدة أمام الآخرين الأقل علما وتحصيلا.

الهوية الإسلامية

على كل حال، فإن المعضلة الكبيرة التي تواجه الأمة من خلال انهيار التعليم هي تغيير الهوية الإسلامية والقومية والوطنية، بسبب

اختلاف التعليم ولغته، وتعدد المناهج في المرحلة الأولى على وجه الخصوص، وهو أمر لا مثيل له في الغرب أو فلسطين المحتلة، فهناك تعليم موحد يعبر عن هوية واضحة. ويجب أن يكون عندنا تعليم موحد يبرز هويتنا المتميزة، وحضارتنا الإسلامية الإنسانية التي تستوعب معطيات الثقافات المختلفة وتهضمها، أما التعليم المختلف في بلادنا فيسمح به للجاليات الأجنبية وحدها، وترعاه سفارة البلاد التي تنتمي إليها الجالية، أما خارج السفارة فيجب أن يكون التعليم موحدا يعبر عن هوية موحدة.

لا مفر إذا من توحيد التعليم الأساسي في بلادنا، وفرض ذلك على ما يسمى مدارس اللغات، ومن العار أن تدرس اللغة العربية في بلد عربي بوصفها لغة ثانية أو لغة أجنبية لطفل مصري عربي، والداه مصريان عربيان وجدّاه كذلك!

مدارس اللغات

إني أحزن حين أسمع أولياء الأمور يتسابقون لإدخال أطفالهم مدارس اللغات في المدن الريفية، ويبذلون الجهود ويتوسلون بالوساطات ليلتحق أبناؤهم بهذه المدارس- وبعضها أنشأته الحكومة- ويتقاضى مصروفات كبيرة، من أجل أن يقال أن الابن يتعلم في مدرسة لغات!

لقد تعلمت وأبنائي في مدارس حكومية، وتفوق بعضهم من خلال هذه المدارس، ولكن ما العمل الآن في الأجيال الجديدة وقد صارت ضحية لنظام تعليمي غير صالح؟

لقد تحولت فصول المدارس وخاصة في الثانوي وبعض المرحلة الإعدادية إلى أماكن خاوية لا يعمرها الطلاب إلا في أثناء الامتحانات.

ما بالك بتلميذ لا يعرف زملاءه، ولا يقوم بنشاط اجتماعي أو رياضي أو ثقافي أو فني داخل المدرسة، لأنه لا يزورها إلا أيام الامتحانات، حيث يستوعبه الدرس الخصوصي منذ الصباح حتى المساء، أو السناتر التي تحولت إلى مدارس موازية، تخلو من التربية والغايات الاجتماعية للتعليم.

الشخصية الغشاشة

وفي الامتحانات تزدهر عمليات الغش بطرق مختلفة ابتداء من الطرق القديمة القائمة على الكتابة على الورق بخط صغير، أو أعضاء الجسم أو المقاعد أو الحوائط، أو إملاء الإجابة عبر مكبرات الصوت على أسوار المدرسة، إلى الطرق الحديثة التي تعتمد على الهواتف الذكية وأجهزة الاتصال الإلكترونية..

ظاهرة الغش الآن صارت أمرا واقعا، وأمام سيولة القيم، وشراسة التلاميذ والطلاب في سلوكياتهم بالعدوان على الملاحظين،

بل وزملائهم الفائقين داخل اللجان، فإن الأمر لا يبشر بخير، وينذر بأفراد يهدمون المجتمع من أساسه؛ فالطبيب الغشاش يقتل المريض ولا يبالي، والمهندس الغشاش لا يبني عمارة صالحة بل تهوي بسكانها، والأمر بالنسبة للصيدلي الغشاش، والمحاسب الكذاب، والباحث الفاسد، والمعلم الضعيف غير الأمين.. وهكذا.. الغش سرطان يقتل المجتمع بغير رحمة.

محضر غش

ومن الطريف أنني استوحيت من ظاهرة الغش روايتي(محضر غش)، التي قامت على أساس حادثة واقعية، وبالطبع لم أكافئ الشخصية الغشاشة التي يمكن أن تكون صعدت، ووصلت إلى هيئة تدريس جامعية، وجعلتها تنكشف في آخر مادة من مواد الامتحان..

ويبدو أن ظاهرة الغش ترتبط ارتباطا وثيقا بالخلل الذي يصيب التعليم القومي، حين ينظر إليه المجتمع نظرة هامشية، فالدول التي نهضت في العقود الأخيرة بعد هزائم عسكرية واقتصادية جعلت من التعليم أساس نهضتها، ومركز انطلاقها للوصول إلى مكانة مؤثرة في العالم، ومنها: اليابان، ألمانيا، ماليزيا، سنغافورة، الهند، موزمبيق، رواندا، البرازيل،...

وأظن أن معالجة ظاهرة الغش تقتضي إصلاح التعليم إصلاحا جذريا يشمل المعلم والمنهج والطالب، وفقا لهويتنا وواقعنا وإمكاناتنا.

علم دون عمل

تركت لأبنائي حرية الاختيار في التعليم، فأحرز كل منهم شهادته العالية وفقا لمجموعه، منهم من تخرج من التربية (لغة فرنسية) وكانت ضمن كليات القمة أوائل القرن الحالي، ولم يعمل بالتدريس، فقد كان هدفه العمل في الإعلام، ومنهم من تخرج في الهندسة، ومنهم من تخرج في الآداب، ومن كان نصيبه الخدمة الاجتماعية ثم استأنف لدراسة اللغة العربية في الآداب، ثم جاءت الابنة الأخيرة بين الأبناء لتدرس الاجتماع، أو الإعلام الاجتماعي، وكنت سعيدا حين أبدوا رغبتهم في مواصلة الدراسات العليا، والحمد لله فقد حصل معظمهم على الماجستير، وبعضهم على الدكتوراه، وما زالوا يواصلون البحث والدرس، وهو أمر يعوضهم عن حرمانهم فرص التوظيف أو العمل. لم أستطع أن أو فّر لهم وظائف مناسبة أو غير مناسبة مثلما فعل غيري. مع أن بعضهم قارب الأربعين، فطبيعتي لا تقبل تملق هذا المسئول أو ذاك أو طلب وساطة فلان أو شفاعة علان من أجل تعيين أحدهم في وظيفة، أي وظيفة! وأقول لنفسي، لقد تعوّدت على الرضا، وتكفيني كسرة خبز وجرعة ماء، وما يتاح لي أنفقه على أسرتي وأنا راض غير ساخط أو غاضب.

تمتلئ بالغضاضة

بيد أن أبنائي حين يرون زملاءهم الأقل منهم مستوى يشغلون وظائف مرموقة، ويتقاضون مرتبات عالية، ويتيهون بوظائفهم أو مناصبهم على الآخرين، لأن آباءهم أو أقاربهم يملكون سلطة التنفيذ والتوظيف، بينما هم قابعون في عقر دارهم لا يعملون ولا يستطيع أبوهم أن يدبر لهم عملا لائقا. فإن نفوسهم تمتلئ بالغضاضة لفقدان العدالة الاجتماعية، وقلوبهم تغصّ بألم الظلم الاجتماعي الذي يتعرضون له وهم يملكون شهادات أرقى من زملائهم، ويلقون باللوم على أبيهم!

وليت الأمر توقف عند العطالة، وملازمة البيت، ففي عام 2015 وما بعده، تعرض بعضهم للملاحقة، كما تعرض بيتي للمداهمة بسب ما جرى في 2013. لم نكن طرفا في حدث، ولم نغادر بيتنا، ولكن رسل الشيطان أبوا إلا أن يجدوا فرصة للانتقام والتشفي. ظهرت طبيعة النفوس المريضة على حقيقتها، وأسفر الحقد عن وجهه القبيح، ولم أعاتب أحدا، فقد عاد ولداي بعد أيام كئيبة قاتمة، كنت فيها أتمزق من ألم المرض، وعواصف القهر القاتل. وما زلت أذكر الملثم الغشوم وهو ينتزعني من سريري بقسوة وأنا لا أستطيع حراكا، ويلقي بي على الأرض ليفتش السرير وما تحت الفراش، والحمد لله أنه لم يجد شيئا غير الكتب وبعض الأواني

المنزلية. في خارج الغرفة كان البيت تزلزله حركة الملثمين المدججين بالأسلحة الآلية والأحذية الثقيلة، يتقدمهم الفتى المزهو بنفسه، يملأ مسدسه، ويوجهه إلى الموجودين بالبيت ومعظمهم نساء وأطفال، ويهدّد بالقتل والدهس، مع أن الأسرة مسالمة لا تعرف الشر، ولم تسرق ولم تنهب، ولم تختلس، ولم تعمل في الدعارة ولا المخدرات، ولا أخذت حق غيرها، ولكن الترويع أصاب إحدى حفيداتي بالتبول غير الإرادي!

القاضي العادل

كنت أعرف والد الفتي المزهو بنفسه منذ زمان بعيد، وكان من أعضاء التنظيم الطليعي في زمنه، وظل ابنا للنظام الذي كافأه بأن يكون له من أبنائه قاض، وضابط، وأن يكون هو شخصية ساطعة بين أفراد مهنته في المحافظة، ولكنه في نهاية أمره ذهب قبل نحو عامين إلى ربه، القاضي العادل الذي لا يُظلم عنده أحد.

غيّرت المداهمة نظام حياتي وقلبت ليلي نهارا. كنت منذ بدأت الشيخوخة والمتاعب الصحية أنام نوما متقطعا، غير منتظم. لا أشبع نوما، ولا أشعر متعة في اليقظة. الآن، كل ليلة، في الثانية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة بعد منتصف الليل أستيقظ في انتظار المجهول.. المداهمة.. الترويع!

هذا هو الموعد الذي تمت فيه المداهمة الغشوم مرتين. كنت أحرص أن أكون يقظا خوفا على أهل بيتي وخاصة حفيداتي. وصار هذا الموعد قرينا للبؤس الإنساني الذي لا أعرف له سببا ولكنه الابتلاء الذي قد يغفر الله به ذنوبا لا يعلمها الناس، وفي كل الأحوال فقد أديت واجبي نحو ديني ووطني وأمتي، دافعت بقدر ما استطاع قلمي عن الإسلام الحنيف، ورددت الهجمات الفكرية المنكرة، وخدمت في جيش بلادي ست سنوات مجندا مع مئات الألوف من أبناء الفلاحين البسطاء، وعشت مع الأمة الإسلامية في أحلامها وأفراحها وأحزانها، وأديت عملي بإخلاص في مجال وظيفتي، ولم أنافس أحدا أو أقطع الطريق على أحد في ترقية أو أمنية، بل ساعدت كثيرين مبتغيا وجه الله، ولم أصد أحدا عن بيتي يطلب الزيارة أو الدعم.. فقط كرهت المنافقين والأفاقين والحاقدين بقلبي، وتمنيت من الله أن يهديهم، ويعيدهم إلى الصواب، وكان بعض الناس يعتب على: كيف تتعامل مع فلان، أو لماذا تذهب إليه وتسلم عليه، وتبدي تعاطفك معه، وهو كذا.. وكذا.. فأبتسم وألزم الصمت، وأقول له: إنه زميلك وأقرب الناس إليك وأول من يقوم بإغاثتك ونجدتك. بعضهم لا يجدي معه الرفق، ولا ينتظر منه أمل أو خير، وهذا صحيح، وأقول لنفسي: إن هذه النوعية مثل النار تأكل بعضها، ولا يبقى منها غير الرماد، ولا تحصد في نهاية الأمر إلا بغض الناس، ورفضهم.

صلاة الفجر

كنت دائما أحبذ النوم المبكر، أحيانا نادرة أتجاوز العاشرة قبل النوم، وأستيقظ مع الفجر، وكانت أفضل ساعات العمل بالنسبة لي هي ما بعد صلاة الفجر حتى الظهيرة، ولا ريب أن هذه الساعات تمثل النشاط البدني والحيوية الذهنية، وكنت من زمن الدراسة أحرص على استثمار هذه الفترة في الاستذكار والقراءة والكتابة، وبعد الظهر أفرغ لأشياء أخرى خارج المنزل، والمشاركة في أنشطة مختلفة، ورؤية الأصدقاء والزملاء، والتريّض اليومي.. بعد المداهمة انقلبت الأمور، وتشتت الذهن، وقل النشاط، وكثرت مرات النوم، وخاصة في الصباح، وهو ما يمثل لي مشكلة حين أرتبط بموعد مبكر. ولكني في كل الأحوال أسعى لتنظيم الوقت بقدر ما أستطيع، والعمل بأقصى الطاقة.

صورة أمي

رزقت ستة حفيدات هن حياتي وروحي، طيبات مزعجات، لكني أراهن صورة أمي التي افتقدتها قبل عقود (1988م)، بعد رحيل أبي بسنتين، كانت أمي واحتي الغناء التي ألجأ إليها في هجير الحياة، وكانت (الرادار) الذي يكشف أعماقي دون أن أتكلم، وكانت الداعم أمام صعوبات الحياة ومتاعبها، وعندما فقدتها ظننت أني لن

أراها ثانية إلا يوم القيامة، ولكن الله أهداني إياها في صورة (رقية وخديجة وحبيبة ومريم وجويرية وسارة).. كلهن أمهاتي اللاتي أتمنى أن أقضي بينهن بقية العمر، لولا التزاماتي، وإقامتهن بعيدا عني باستثناء خديجة أو خوخة التي تشبه أمي إلى حد كبير.

المدارس الحكومية

أنظر إليهن وهن يتعلمن في مدارس خاصة تسمى مدارس لغات (سبقت الإشارة إليها)، ومصروفاتها عالية، وأقارن بين تعليمهن وتعليم آبائهن وجدّهن. كانت المدارس الحكومية في الزمن البعيد هي الأفضل، وهي التي يحقق طلابها المجاميع الأعلى، أو الدرجات الفائقة، وكان المجتمع يومئذ ينظر إلى المدارس الخاصة نظرة دونية، فكانت مأوى الطلاب الضعاف والفاشلين، الذين يحتاجون إلى دروس خصوصية، وهي نقيصة كان يخفيها من يذهب إلى مدرس في بيته، ليشرح له أو يلقنه مادة أو أكثر..

للأسف الشديد لحقت المدارس الخاصة بالدروس الخصوصية، وصار أصحابها تجارا في سوق التعليم الذي لا يختلف كثيرا عن السناتر- وهي التعليم الموازي المكلف مالا كثيرا - ووصل إلى أعماق الريف والقرى. والكارثة اليوم أن هذا التعليم الخاص أضحى يشكل خطرا على هوية المجتمع لأن كل مدرسة تتبنى خطة منفردة، فهذه تعلم الإنجليزية، وأخرى تعلم الفرنسية، والثالثة

تعلم الألمانية، أما اللغة القومية، لغة البلاد، فقد تراجعت تراجعا كبيرا، وهناك تفاوت كبير بين هذه المدارس التي تشبع الرغبة المظهرية بين أولياء الأمور وخاصة الأمهات اللاتي يتفاخرن أن أبناءهن يدرسون إنجلش أو فرنش أو جرمان، ومع سيادة الدروس الخصوصية والسناتر واختلاف المناهج على التعليم بصفة عامة، فإن دور الوزارة المختصة صار قاصرا على الامتحانات، وكثيرا ما تجد وزيرا أو مسئولا في الوزارة يخرج على الصحافة والإعلام ليتحدث عن ورقة الامتحانات ونوع الأسئلة: مقالية أو اختيار من متعدد، أو بابل شيت أو أون لاين أو أوبن بوك.. ثم يتناول الصراع حول جداول الامتحانات، والفروق بين مواعيد المواد، أو.. ثم الحديث عن نتائج الشهادات العامة، والتظلم منها لدى بعض الطلاب.

كرامة المعلم

لا مجال هناك للكلام عن المستوى المتدني في التعليم بعامة، ولا انهيار كرامة المعلم بل والأستاذ الجامعي، ولا تأثير ما يسمى بالتعليم عن بعد على مستوى الطلاب واستيعابهم، ولا يبكي أحد على الكتاب المدرسي الذي اختفى من الجامعات، أو تواضع مستواه في التعليم العام، ومن أجل الحداثة ظن بعض المسئولين أن التعليم بواسطة الشبكة الضوئية سيوفر كثيرا على الدولة، ونسوا أن بعض القرى لا ينتظم فيها النت ولا الكهرباء..

الباب الخلفي

من سلبيات التعليم العالي، تلك البرامج التي تفنن فيها بعضهم من أجل تحقيق عائد مادي لبعض الأساتذة، مثل «التعليم المفتوح»، وهو باب خلفي لحصول طلاب الديبلومات الفنية على شهادات جامعية، من خلال توزيع كتب الأساتذة على الدارسين(؟)، ويحضرون في آخر الفصل أو العام لأداء الامتحان، مقابل رسوم يدفعونها للكلية المنوطة بتنفيذ البرنامج. وقد تنادى كثير من الأساتذة والمعنيين بشئون التعليم إلى إلغاء هذا البرنامج، لأن سلبياته كثيرة، خاصة وأن طلابه كانوا ينتمون إلى فئات اجتماعية معينة لا يملك القائمون على البرنامج إلا التساهل معها بحكم سطوتهم الوظيفية أو التنفيذية، وتتم الآن تصفية هذا البرنامج، وتخريج أفراده، لينتهي بذلك خلل كبير في مجال التعليم! وإن كان هذا الخلل سينتقل إلى جهات مجهولة تمنح شهادات الليسانس والبكالوريوس عبر النت، بعد تحويل مبالغ معينة، وآمل أن لا تتم معادلة هذه الشهادات في وزارة التعليم العالي عندنا.

الجامعات الأهلية

وقد ظهرت في السنتين الأخيرتين ما سمي الجامعات الأهلية وعددها غير قليل، وهي تسمية غير دقيقة، لأنها تنافس الجامعات

الخاصة في مصروفاتها وضعف إمكاناتها، فالجامعات الأهلية أو المدارس الأهلية يفترض أنها كيانات غير ربحية، تعتمد على النشاط الشعبي الذي يسهم في إقامة المؤسسات التعليمية بمبادرات ترفع كثيرا من العبء عن كاهل الحكومات، وتركز على تحقيق أهداف متميزة لصالح المجتمع، وتتقاضى من الطلاب رسوما رمزية، وربما تضع في حسبانها رعاية الطلاب الفائقين مجانا، وتقوم الدولة بمساندتها عن طريق معونة سنوية إذا كانت حسنة الأداء، ملتزمة بمعايير الجودة التعليمية.

هناك الآن فيما نقرأ عبر الصحف والمواقع مصروفات كبيرة لهذه الجامعات، لا تقل كثيرا عن الجامعات الخاصة التي أقامها نفر من الباحثين عن الربح والكسب.

مصروفات كبيرة

وقد نشرت المصري اليوم في 31/ 7/ 2023 تقريرا مطولا عن مصروفات الجامعات الأهلية التي أنشأتها الحكومة في العام الجامعي في أسيوط الجديدة والإسكندرية والزقازيق، وحلوان والمنصورة والإسماعيلية وبنها وبني سويف والجلالة.. وتتراوح المصروفات في هذه الجامعات بين 110 آلاف، و25 ألف وفقا لمصروفات العام الماضي2022، ففي جامعة أسيوط الجديدة مثلا تتراوح المصروفات بين 90 ألف جنيه للطب، و30 ألف جنيه

للألسن واللغات التطبيقية. ويلاحظ أن هذه الجامعات تركز على المجال العلمي العملي، مثل الطب البشري وطب الأسنان والهندسة والحاسبات والمعلومات والأنظمة الذكية والعمارة والتصميم البيئي. وتكنولوجيا العلوم الصحية، والتمريض.

الناس يتساءلون

ويتساءل الناس عن سبب إقامة الجامعات الأهلية التابعة للحكومة، في الوقت الذي تحتاج فيه الجامعات الحكومية القائمة إلى دعم أكثر، ومساندة أكبر، وخاصة في مجال أطقم التدريس ورواتب الأساتذة والعاملين، وتوفير ميزانية معقولة للأنشطة والمعامل والمكتبات، فضلا عن البحوث والدراسات والمؤتمرات. هل تسعى الحكومة إلى منافسة القطاع الخاص التعليمي، أو تحويل التعليم الجامعي بالتدريج إلى تعليم مدفوع؟ لا أظنني أو غيري ممن يعيشون بعيدا عن مصدر القرار نعلم طبيعة الهدف من إنشاء ما يسمى الجامعات الأهلية التابعة للحكومة.

ويلاحظ أن الدراسات العليا في الجامعات الحكومية الراهنة وصلت أو اقتربت من مستوى التعليم المدفوع، وهو ما يجعل كثيرين يحجمون عن متابعة دراساتهم العليا، بالإضافة إلى تعقيدات شكلية أراها غير عملية، مثل شهادة التويفل في اللغة الإنجليزية، ونشر أبحاث لطلاب الماجستير والدكتوراه في مجلات محكمة، وحضور دورات في

الكمبيوتر.. وغير ذلك من أمور مقابل رسوم طائلة، في حين ينبغي أن تتحقق هذه الأمور ضمن برامج مواد الليسانس أو البكالوريوس، وتتم تحت إشراف مباشر من أساتذة القسم العلمي المختص.

فوق الطاقة

وبصفة عامة، فإن تكاليف التعليم الخاص والعام صارت الآن فوق طاقة الأفراد العاديين أو ما كان يسمى الطبقة المتوسطة، في ظل الغلاء الفاحش أو ارتفاع الأسعار، وتخفيض قيمة العملة المتتابع بسبب ديون الدولة الخارجية التي وصلت حدا غير مسبوق (نحو 165 مليار دولار أميركي حتى كتابة هذا السطور). وأضحى الجنيه الذي كان يشتري بصلة واحدة قبل ستة شهور لا يكفي لشرائها الآن، ولا بد أن تضع عليه الآن خمسة جنيهات أخرى لتشتري هذه البصلة!

الجنيه والدولار

وقد عثرت في الويكيبيديا على جدول طريف يكشف عن تطور قيمة الجنية المصري الذي كان يضرب به المثل في القوة الاقتصادية ووضعه الحالي، حيث تلاشت قيمته في مجال البيع والشراء، ولنقرأ الجدول الذي يبين كيف كانت قوته أمام الدولار الأميركي وإلى أين انتهت الآن قبل نحو قرنين وعقدين من الزمان:

التاريخ	سعر الصرف الرسمي
1789 إلى 1799	EGP 0.03 (الجنيه الرسمي)
1800 إلى 1824	EGP 0.06
1825 إلى 1884	EGP 0.14
1885 إلى 1939	EGP 0.20
1940 إلى 1949	EGP 0.25
1950 إلى 1967	EGP 0.36
1968 إلى 1978	EGP 0.40
1979 إلى 1988	EGP 0.60
1989	EGP 0.83
1990	EGP 1.50
1991	EGP 3.00
1992	EGP 3.33
1993 إلى 1998	EGP 3.39
1999	EGP 3.40
2000	EGP 3.42 إلى EGP 3.75

2001	EGP 3.75 إلى EGP 4.50
2002	EGP 4.50 إلى EGP 4.62
2003	EGP 4.82 إلى EGP 6.25
2004	EGP 6.13 إلى EGP 6.28
2005 إلى 2006	EGP 5.75
2007	EGP 5.64 إلى EGP 5.5
2008	EGP 5.5 إلى EGP 5.29
2009	EGP 5.75
2010	EGP 5.80
2011	EGP 5.95
2012	EGP 6.36
2013	EGP 6.5 إلى 6.96
2014	EGP 7.15
30 يناير 2015	EGP 7.55
14 مارس 2016	EGP 8.95
30 مارس 2016	EGP 8.88

03 نوفمبر 2016	EGP 13.00
19 يناير 2017	EGP 18.85
7 يونيو 2018	EGP 17.86
7 فبراير 2020	EGP 15.73
21 مارس 2021	EGP 17.50
27 أكتوبر 2022	EGP 22.95
14 يناير 2023	EGP 29.53
29 فبراير 2023	EGP 30.68

ونلاحظ أن قيمة الدولار الأميركي في خواتيم القرن الثامن عشر كانت تساوي ثلاثة قروش (الجنيه= مائة قرش) أي أن الجنيه يومئذ كان يساوي أكثر من ثلاثة وثلاثين دولارا!، وفي عهد محمد على وصلت قيمة الدولار إلى أربعة عشر قرشا، ثم وصلت قيمته إلى ستة وثلاثين قرشا عام 1950 وظلت ثابتة حتى 1967. أي إن الجنيه المصري كان يساوي في تلك المرحلة حوالي ثلاثة دولارات.. ثم بدأ الانخفاض التدريجي لقيمة الجنيه أمام الدولار، حتى وصل إلى نحو ستة جنيهات في عام الثورة 2011، وفي عام 2013 انخفض إلى نحو سبعة جنيهات، وبدأت وتيرة الانخفاض تسرع

حتى بدأت أول عملية تعويم رسمي (نوفمبر سنة 2016) بناء على تعليمات بنك النقد الدولي الذي يعد المصدر الأساسي للاقتراض، فوصلت قيمة الدولار إلى 13جنيها مصريا، ثم وصلت قيمته في يناير 2017 إلى 18,95جنيها مصريا، وكان هناك تعويم في أكتوبر 2022 وصل إلى 22,95، وتعويم ثالث في يناير 2023 انخفض الجنيه أمام الدولار إلى 29,53، ويواصل الانخفاض إلى أن وصل رسميا ساعة كتابة هذه السطور إلى 30,84. أما السوق الموازية المحظورة فقد وصل إلى نحو أربعين جنيها للدولار الواحد، ويتردد الصعود والهبوط ما بين جنيه أو أكثر قليلا.

ثلاثة أضعاف

بإيجاز شديد لو امتلكت 90 جنيها في عام 2016 فيجب أن يكون معك عام 2023 حوالي ثلاثمائة جنيه لتساويها رسميا، وما كنت تشتريه بتسعين جنيها يومذاك لا تستطيع أن تشتريه بأقل من ثلاثمائة جنيه الآن، وأضف إلى ذلك ما يضعه التجار غير الأمناء على الأسعار بحجة ارتفاع الدولار وانخفاض الجنيه.

في زمن مضى كان تقويم الجنيه المصري بمعايير الذهب المتعارف عليها، فكان الجنيه المصري= 7.4375 جراماً من الذهب، ما بين عام 1885 وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى في عام 1914، فارتبط الجنيه المصري بـالجنيه الاسترليني وكان هذا الأخير يساوي

0.975 جنيها مصرياً. وظل هذا الارتباط قائما حتى عام 1962، فانتقل ارتباط الجنيه بـالدولار الأمريكي ثانية عند مستوى 2.3 دولاراً لكل جنيه مصري، وارتفع سعر الصرف في عام 1973 إلى 2.5555 دولاراً لكل جنيه مصري، ولكن سعر الصرف انخفض إلى 1.42857 دولاراً لكل جنيه مصري، ثم أخذ يتدحرج على نحو ما، واشتد تدحرجه في العقد الأخير حتى وصل إلى الوضع الحالي، ما يقرب من أربعين جنيها للدولار في السوق الموازية، وواحد وثلاثين في السوق الرسمية، ولا أحد يدري أمام الأزمات الخانقة إلى أين سيصل، أو متى يتوقف التدحرج إلى أسفل!

التعليم والغلاء

في ظل هذا الوضع الصعب، وازدياد الأعباء على الناس بصفة عامة وأولياء الأمور بصفة خاصة، يبدو التعليم منصة تصويب دائمة للغلاء والانهيار، ما لم تتدارك البلاد والعباد رحمة الله!

لقد ألقت الأزمات الخانقة المتعاقبة بظلالها الثقيلة على حياة الناس، وأفرزت مشكلات مزعجة اجتماعيا وإنسانيا، وتعقدت أحوال الأسرة المصرية، التي تشكل معظم الفئات وتمثل ٪95 من الشعب، في المأكل والمشرب والملبس، ولم يفلت من هذا الوضع غير الفئة المحظوظة التي تمثل ٪5، حيث يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، دون جهد يذكر، أو تعب حقيقي، وانعكس ذلك كله

على طبيعة العلاقات داخل الأسرة وبين الناس، وسلوكياتهم خاصة الشباب.

الأحوال الشخصية

قلّ الإقبال على الزواج بسبب التكاليف الباهظة، وارتفعت نسبة العنوسة بين الجنسين، وأصبح الطلاق خبرا عاديا مألوفا في القرية بعد أن كان يمثل صاعقة تهتز لها أفئدة العائلات، وساعد على ذلك القوانين الجائرة لما يسمى الأحوال الشخصية التي شاركت في صنعها وصياغتها انتقاما من المجتمع والقيم نساء فاشلات، فاقدات لمعنى الأنوثة، كارهات للأمومة وبناء الأسرة الطبيعية. لقد انحازت هذه القوانين إلى «المرأة المفترية» على طول الخط، فضلا عما تروجه أجهزة الدعاية والصحافة من تقاليع قبيحة، تحمل عناوين: فلانة تحتفل بطلاقها، فلانة تخلع زوجها، المرأة العاملة لا تخاف الطلاق، ولا تخشى الوحدة، المرأة غير ملزمة بإرضاع أطفالها أو تربيتهن، أو رعاية أسرتها..

وقد ضاقت الأحـوال على الأسر الفقيرة والمتوسطة بقيام السلطة بخطوات خشنة لرفع الدعم عن السلع الأساسية بالنسبة للطبقة المتوسطة والشرائح الضعيفة، تحت ذرائع مختلفة، مع أن الدعم حق دستوري لكل المواطنين أيا كان مستواهم، على أساس المساواة بين أفراد الشعب. لقد رفعت السلطة أسعار الكهرباء والمياه

والغاز والمحروقات، والسكر والزيوت والمسلى الصناعي والأدوية والدقيق والخبز الحر والبقوليات، وهو ما أدى بالتالي إلى رفع السلع الأخرى، وصار شائعا أن يقول لك بائع الفجل والطعمية: لقد ارتفع الدولار، لا تستكثروا على أن أرفع سعر بضاعتي!

زيادة الضرائب

أضف إلى ذلك زيـادة الضرائب المباشرة وغير المباشرة، وأضحى استخراج وثيقة من الأحوال المدنية مثل شهادات الميلاد والوفاة وبطاقات تحقيق الشخصية وجوازات السفر ووثائق الزواج والطلاق، وكذا الشهادات الدراسية وصحائف الأحوال الجنائية، ووثائق الشهر العقاري، وترخيص السيارات وقيادتها، والمحاكم، ورسوم البريد، والتحويلات البنكية والإلكترونية.. وغيرها مرهونة بدفع مبالغ مضاعفة. بالإضافة إلى زيادة تعريفة الرسوم الجمركية على 364 سلعة بقرار جمهوري.

وسيلة الهروب

لقد أدى ضيق الحال بكثير من الأسر إلى حالة من التفسخ والانحلال، وأضحي الإدمان أو الانتحار وسيلة الهروب المثلى بالنسبة لشباب افتقد التوجيه والإرشاد في الأسرة ودور العبادة، وساء أمر التعليم بفقدان القدوة والأسوة فلم يهتدوا سبيلا.

وأضحت بعض الصيدليات مصدرا لتغذية المدمنين بألوان مختلفة من الغيبوبة، وأصناف متنوعة من الأدوية، تخدرهم وتنسيهم الواقع المرّ الذي يعيشون فيه.

والأخطر من ذلك هو الحل الذي يتجه إليه بعض الشباب بالهرب من البلاد، وركوب زوارق أو مراكب الموت التي تعبر المتوسط، في طريقها إلى موانئ الدول الأوربية فتغرق بمن فيها، أو يغرقها خفر السواحل في اليونان وإيطاليا وقبرص والجزر المتناثرة جنوبها.

هناك دائرة للموت لا يخرج منها إلا من رحم الله، بسبب المتاعب التي تعانيها الأسر المصرية في ظل الأزمات الخانقة المتلاحقة.

لأسباب تافهة

لقد عرف المجتمع حوادث أسرية وعامة لم يعرفها من قبل، إن صفحات الصحف والمواقع تضج بحوادث غير مسبوقة بين ذوي الأرحام من قتل وذبح وإصابات بالغة لأسباب تافهة أو خلافات عابرة أو مواريث بسيطة، ثم هناك حوادث قتل تجري بين أطراف لا يعرف بعضهم بعضا تنتهي بالقتل والتصفية لأسباب واهية أو مشاجرات عابرة، والأدهى من ذلك كله هو التنكيل بالقتلى أو الضحايا في عرض الشارع من خلال مناظر مقززة، والغريب أن الناس يتفرجون ولا يتدخلون ولا يقومون بتهدئة الأمور بين الأطراف المتنازعة قبل أن تصل الأمور إلى هذا الحدّ!

تجليات قاسية

ومع أننا أسرة مستورة بفضل الله، إلا أننا لا نستطيع أن ننفصل عن هذا المناخ العام، وتجلياته القاسية، وقد أضحت متاعبنا ثقيلة بسبب العطالة، وانسداد الأفق العام، الذي برزت فيه مصطلحات مثل: الاختفاء القسري، وإطلاق الإرهاب والداعشية على المتمسكين بالإسلام عقيدة وفكرا، ودينا ودنيا، ومقتل شخصيات محلية أو أجنبية دون التوصل إلى الجناة (مقتل جوليو ريجيني)، واستيراد قمح يحوي فطر الإرجوت واستقالة وزير للتموين يدعى خالد حنفي بسبب هذا الموضوع، وتوقيع اتفاقيات مثيرة للجدل مثل الموافقة على بناء سد الحبشة الذي لم توافق عليه مصر لمدة سبعة عقود، وهي موافقة ستحرم مصر من كامل حصتها المائية، أو تضعنا- على الأقل- تحت رحمة الأحباش، ثم ظهرت في الأفق قضية تسمى تيران وصنافير، وهما جزيرتان مصريتان في مدخل خليج العقبة، واستشهد في إحداهما مجند احتياط، ياسين السعيد، وهو أحد زملائي في القرية عام الهزيمة السوداء 1967، وكان يعمل في أحد البنوك.

حكم غيّره حكم

كانت الدعاية الرسمية تروج أن الجزيرتين ملك للمملكة العربية السعودية، وأنها سلمتهما لمصر في ظروف معينة، وآن الأوان

أن تستردهما. الجزيرتان بينهما وبين الشاطئ المصري ثلاثة كيلو مترات، وتحدث عنهما جمال عبد الناصر كثيرا عام 1967، بوصفهما من المياه الإقليمية لمصر، وهما مدخل ما يسمى مضايق تيران، عرض الأمر على القضاء المصري، فحكم مجلس الدولة بمصرية الجزيرتين، وأكد حكمه في درجة أعلى، ولكن السلطة عرضت الأمر على القضاء العادي الذي أيدها فيما ذهبت إليه، وقام مجلس النواب بالموافقة على تسليم الجزيرتين إلى السعودية!

السيادة الرسمية

وهنا ظهرت اتفاقية كامب ديفيد، وكيان الاحتلال النازي اليهودي، وبدأ الناس يسمعون عن ترسيم الحدود، وفُهم من الكلام أن الجزيرتين سيخضعان عمليا للعدو الذي سيتحكم في خليج العقبة بأكمله، وإن كانت السيادة الرسمية للسعودية، وربط بعض المراقبين بين خطط اليهود الغزاة لإنشاء قناة موازية لقناة السويس توفر وقتا وجهدا للسفن العابرة، وتحرم مصر من دخل أساسي مهم!

تداخلت مسألة الجزيرتين مع الموافقة على بناء سد الحبشة الذي يجعل مفتاح المياه في يد الأحباش، ويمكن أن يحرم الأراضي الزراعية من مصدر الري الأساسي، وبدأ الحديث يتمدد عن تحلية مياه البحر، ومعالجة مياه الصرف الصحي، ورأى بعضهم أن إعادة

مشروع قناة جونجلي إلى الوجود، والإفادة من مياهها يمكن أن يعوض بعض ما تفقده مصر من مياه الحبشة، التي تم تأمينها منذ معاهدة أديس أبابا 1902 مقابل التنازل لها عن منطقة بني شنقول جوموز وتقع على بعد نحو 20-40كم من الحدود السودانية، وهي منطقة عربية مسلمة كانت ضمن حدود السودان، وقد أقام الأحباش فيها سدهم الذي كان يسمى في البداية سد إكس، وانتهت التسمية إلى سد النهضة، ومن أبرز الدول التي تسهم في إقامة السد الحبشي إيطاليا والصين وبعض الدول الخليجية العربية، حيث يتم استثمار مليارات الدولارات الأميركية.

لغة العجرفة

أوشك السد على الانتهاء، وأخفقت الحكومة المصرية التي أعطت الموافقة على بناء السد في الوصول إلى اتفاق ملزم يمنع الحكومة الحبشية من الإخلال بحصة مصر المائية. وكلما اقترب السد من الانتهاء ازدادت لغة الأحباش عجرفة وغطرسة، وخفت صوت الحكومة المصرية في مواجهة أصحاب السد، بل إن اللغة المصرية تزداد رقة وليونة كلما انتقل الملء من مرحلة إلى أخرى، وها هو الملء الخامس للسد - وهو الأخير فيما يبدو - يوشك على الانتهاء دون أن تلوح في الأفق بوادر حل للأزمة المستعصية على القاهرة، والسهلة بالنسبة للأحباش الذين يجدون تأييدا دوليا

متزايدا، بدءا من مجلس الأمن الذي خذل الحكومة المصرية، حتى أقرب الدول العربية إليها.

مكان رخو

رد الفعل المصري يبدو ضعيفا للغاية، ويعتمد على لغة لا تفيد أن السلطة جادة في فرض إرادتها على الطرف الآخر، مثلما تفعل في مواقف أخرى. ويتحدث بعض من يظهرون على الشاشات المحلية عن حلول غيبية ترتبط بالأقدار، كأن يقول بعضهم إن المكان الذي أقيم فيه السد الحبشي رخو وأنه معرض للانهيار على المدى القريب أو المتوسط، أو يقول أحدهم إن زلزال إريتريا (2/ 8/ 2023) سينعكس على بناء السد ويهدد بتداعيه، وهذا كلام غير علمي، يدحضه كلام العلماء والباحثين الذين يؤكدون أن السد أقيم في منطقة صخرية ثابتة، وأنه مصمم تصميما دقيقا من جانب إيطاليا ضد الظواهر الجيولوجية السلبية!

تناثرت أقوال مرسلة عن تمويل سري للسد الحبشي من جانب بعض الدول العربية لتفيد من حصة مصر التي ستستولي عليها الحبشة بعد انتهاء السد، عن طريق أنابيب أرضية وبحرية، وتشارك إريتريا في هذا الأمر نظير إيجار الأنابيب التي تمر بأرضها! ولعل هذت يفسر خفوت التأييد العربي لموقف السلطة المصرية في مواجهة الغطرسة الحبشية، وسيرها قدما في إكمال البناء، دون أن تلقي بالا للمناشدات المصرية بالتفاوض المثمر!

القوة الشاملة

في عقود سابقة هدد المسئولون المصريون بالقتال إذا أقدمت الحبشة على بناء هذا السد المخالف لاتفاقية أديس أبابا 1902، والمؤكدة باتفاق 1955، وهناك تصريح مشهور لوزير الدفاع المصري الأسبق محمد عبد الحليم أبو غزالة (ت 2008م)، قال فيه: «يجب أن تسعى مصر باستخدام القوة الشاملة لمنع تنفيذ المشروعات في بعض دول حوض نهر النيل التي تهدف إلى تخفيض نصيب مصر من مياه النيل». (موقع الجزيرة، 7/ 9/ 2020). ويبدو أن الأمر الواقع يفرض نفسه، في ظل انشغال السلطة المصرية بأمور أخرى تخص الحياة اليومية للمصريين، وخاصة مسألة الديون الخارجية والداخلية ومشكلة الغذاء التي تعتمد على القمح والأرز والذرة، وعلف الدواجن والحيوانات..

أزمات متلاحقة

ثم كانت جائحة كورونا، والحرب التي نشبت بين الروس وأوكرانيا من أبرز العوامل التي عقدت الأمـور الاجتماعية والاقتصادية في البلاد، بالإضافة إلى أزمة السياحة التي سبقت بسنوات نتيجة تحطم طائرة روسية عقب إقلاعها من مطار شرم الشيخ بسيناء، في الرحلة متروجت 9268 يوم السبت 31 أكتوبر

2015، وهي في طريقها إلى سان بطرس بورج، وعلى متنها 224 راكبا (217 مسافرا و7 من الطاقم) لقوا مصرعهم جميعاً. وقد تحطمت الطائرة على بعد 100 كلم جنوب مدينة العريش المصرية. ومثلت الرحلة من حيث عدد الضحايا 224 قتيلا الرحلة الأكثر دموية لحادث تحطم لطائرة يقع في مصر، وتوقف وصول السياح الروس منذ ذلك التاريخ حتى عاد قبل ثلاث سنوات تقريبا، مما أثر على جانب كبير من الدخل القومي، حيث يمثل السياح الروس الجانب الأكبر في الحركة السياحية المصرية.

أضف إلى ذلك توقف آلاف المصانع الصغيرة والمتوسطة بسبب شحّ الدولار، وصعوبة استيراد قطع الغيار، والمواد الخام.

إن حالة المجتمع، وقد وصلت إلى انسداد الأفق العام، خلقت إحباطا لدى الأكثرية من الطبقة المسحوقة، عبّر عن نفسه بطرق مختلفة، وقد رأينا بعض ملامحها فيما سبق، واسترجع كثيرون تاريخ الشدة المستنصرية في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، وتعوّذ الناس منها وتمنوا أن تمر الأمور بسلام. أما الأقلية المحظوظة فلم تعان شيئا من ذلك، بل تفرغت للهو والترف و وممارسة صنوف المتع الحلال والحرام جميعا، فضلا عن الظلم العام للأبرياء.

ثم أقبلت جائحة الكورونا لتضيق الدنيا على سكانها، ويقبع الناس في البيوت، ويتعطل معظم ما كان متاحا للإنتاج والكسب.

فيروسات جديدة

ويأتي مرض كورونا على هيئة زكام والتهاب تنفُّسي حاد (سارس) ومتلازمة الشرق الأوسط التنفُّسية (ميرس). وتحدثت الأخبار عن اكتشاف نوع جديد من فيروسات كورونا في عام 2019، بإحدى منشآت الصين تسببت في تفشي الوباء. (كوفيد 19). وأعلنت منظمة الصحة العالمية أن فيروس كورونا (كوفيد 19) قد أصبح جائحة عالمية. وأخذ الناس يتابعون ما تنشره منظمة الصحة العالمية من أخبار الفيروس والعدوى وأحواله مع المرضى وأعراضه، مع رصد يومي لأعداد المصابين في كل البلاد التي دخلها الوباء.

مصطلح العزل

وكان كبار السن بعد الستين هدفا للوباء بحكم ضعف البنية والأمراض المزمنة وعدم القدرة على المقاومة، وشهد عام 2019 تشييع جنازات أعداد غير قليلة منهم في أنحاء البلاد، ولأن العدوى كانت قاتلة، فقد أحجم الناس عن مخالطة المرضى والاقتراب، وصار مصطلح العزل الذي خصصت له مستشفيات بعينها يتردد كثيرا، وكان هناك عزل منزلي بالنسبة لبعض الحالات، يتعامل فيها الأهل مع المصاب من بعيد، وانتشر مصطلح آخر هو التعقيم، مع استخدام المنظفات داخل المنازل وبعض المؤسسات، فضلا عن ضرورة التطعيم باللقاحات المستوردة، أو التي تنتجها شركات أجنبية.

وتوقفت الدراسة في الجامعات والمدارس عن طريق المشافهة، وطرحت برامج عبر الشبكة الضوئية لتكون بديلا للأساتذة والمعلمين والكتب، وصار التعامل عبر النت مع بعض الجهات مشابها لأمر التعليم، وأضحت الكمامات أو الأقنعة على وجوه الناس أمرا حتميا خوفا من انتشار الرذاذ الذي يسبب العدوى.

إغلاق المساجد

وأضحي التباعد بين الناس أمرا حتميا في المؤتمرات واللقاءات الرسمية والشعبية، والمواصلات العامة والقطارات، والمساجد، وقد استغل المسئولون في الأوقاف الجائحة لإغلاق المساجد، حتى دورات المياه التي تعد مرفقا يخدم عامة الناس في الشوارع والأسواق والميادين، أطول مدة ممكنة، وظهرت فتاوى تتحدث عن التسامح في صلاة الجمعة، وصلاة الظهر بدلا عنها. وجددت الجهات الصحية المعنية الدعوة للحرص على تشغيل المراوح في المساعدة على إخراج الهواء من النوافذ لتجديد الهواء، واستخدام مرشحات الهواء وتشغيل مراوح شفط الأبخرة في الحمام والمطبخ وجهاز تنقية هواء محمول، وتجنب ركوب وسائل النقل العامة وسيارات الأجرة وخدمات تأجير السيارات بالسائقين إذا كان الشخص مريضًا.

صار التنقل بين الدول صعبا، وفرضت بعض الحكومات أنظمة صعبة لدخولها أو الخروج منها، وقد عانى المصريون الذين يعملون في

الخارج من هذه الأنظمة، التي كانت تفرض العزل في بعض الفنادق أو المساكن، لمدة طويلة، وعمل اختبارات، وتناول أدوية معينة، مع ما تبع ذلك من تكاليف عالية تفوق أحيانا قدرة العامل وإمكاناته.

تحذيرات دعائية

وكانت القنوات التلفزيونية وموجات الإذاعة والصحف والمواقع الإخبارية تذيع باستمرار عبر برامجها ووسائطها تعليمات وزارة الصحة عن غسل الأعضاء المكشوفة في الجسم، والاهتمام بالنظافة الشخصية وعدم المصافحة باليدين، واستخدام المطهرات في المناسبات والأماكن المختلفة، والحرص على التهوية المستمرة للغرف وأماكن العمل، والبقاء في الأماكن المفتوحة، وتجنب الأماكن المغلقة كلما أمكن.. ووصلت المبالغة لدى الناس حدا رفضت فيه بعض العائلات دفن أقاربهم في مقابرهم الخاصة، مع أن وزارة الصحة كانت تقوم بعمل الاحتياطات الواجبة بالنسبة لجثامين الراحلين بسب الوباء! ولكن الخوف على الحياة يدفع إلى تصرفات تبدو غير منطقية، كما جرى لجثمان إحدى السيدات التي رفضت أسرة زوجها دفنها في المقابر الخاصة بها بذريعة أن الزوجة من بلد آخر، مع أن العادات والتقاليد المتوارثة تفرض دفن الزوجة في مقبرة زوجها، وقد تدخلت بعض الجهات في المكان(محافظة الدقهلية) لحل الموضوع، ولكنه خلف أثرا حزينا على مستوى البلاد كلها.

صراعات اقتصادية

لم تتوقف الأخبار عن بث اتهامات متبادلة بين الدول الكبرى بتخليق الفيروس في المعامل، لأغـراض تجارية وغير خلقية، وإنزال خسائر بالآخرين وإصابتهم من خلال صراعات اقتصادية وأيديولوجية، تسعى للهيمنة والسيطرة على العالم ومصائره.

وبرز ذلك الصراع في حصول دول العالم على اللقاحات من الدول المنتجة. ومع أن بعض الدول الكبرى كانت تمنح بعض الدول كميات من اللقاحات على هيئة مساعدات أو مجانا، فإن تعدد اللقاحات وتنوعها قد أوجد حالة من الارتباك لدى بعض الناس حيث انتشرت شائعات تتحدث عن لقاحات مغشوشة أو لقاحات تساعد الإصابة بالكورونا(!).

تلقيت لقاح أسترازينيكا البريطاني الذي أنتجته جامعة أكسفورد، ولم تحدث لي مضاعفات بعد الجرعة الأولى، وحين تعاطيت الجرعة الثانية لم أشعر بعدها بمضاعفات أيضا، وفجأة زارتني الكورونا بعد عدة أسابيع، ودخلت دوامة المرض التي خرجت منها بفضل الله، ومع مرور قرابة عامين، فما زالت آثارها ترهقني ألما ومتاعب.

وقد أصيب أحد أبنائي الذي تعاطي اللقاح نفسه بالكورونا،

وكاد يهلك لولا لطف الله، وقد أشرت إلى ذلك في موضع آخر، وهو ما أثار في داخلي شكا كبيرا في طبيعة اللقاح الذي تناولته ونجلي، وعدّه بعضهم مغشوشا ومؤذيا.

والسؤال هل هناك حقّا لقاحات صدّرتها بعض الدول لنشر الجائحة في البلاد الأخرى؟ وهل كان ذلك تعبيرا عن صراعات بين شركات الأدوية العالمية الكبرى لمزيد من الكسب الحرام؟ وهل كان الذين رفضوا التعاطي مع اللقاحات على صواب؟

لقاح عبد الله

تعدّدت اللقاحات، وظهرت في الأخبار أسماء لقاحات متنوعة تنافست الدول الكبرى في إنتاجها وتوريدها للأخرين بيعا أو مساعدة أو هبة، والعالم يترقب وصولها إليه، والدول العربية الإسلامية والعربية خاصة، التي تعد السوق الرائجة لهذه اللقاحات، وللأسف لم نسمع عن دولة إسلامية أو عربية، قامت بالإسهام في تقديم لقاح باسمها، أو المشاركة مع غيرها في إنتاج طُعم من الطعوم التي حاولت معظم الدول الأخرى أن تنتجها.

الطريف أن دولة كوبا، وهي جزيرة صغيرة، تحاصرها الولايات المتحدة منذ عقود طويلة بسبب اعتناق قادتها للشيوعية، وانحيازهم للاتحاد السوفياتي(الذي كان)، قامت بإنتاج لقاح أطلقت عليه- ويا

للمفارقة- اسما عربيا هو «عبد الله»، وفي تغريدة على تويتر قالت مجموعة «بيوكو با فارما»، التي يتبع لها «مركز الهندسة الوراثية والتكنولوجيا الحيوية»، إنّ « (عبد الله) أبدالا، اللّقاح الذي يطوّره مركز الهندسة الوراثية والتكنولوجيا الحيوية، يظهر فعالية بنسبة 92.28 بالمئة بعد 3 جرعات». وسارع الرئيس الكوبي ميغيل دياز- كانيل إلى تهنئة بلاده على هذا الإنجاز. قائلا:

«إنّ علماءنا في معهد فينلاي ومركز الهندسة الوراثية والتكنولوجيا الحيوية الذين يواجهون جائحتين (كوفيد والحظر) تغلّبوا على كلّ الصعاب وأعطونا لقاحين فعّالين للغاية: سوبيرانا 2 وأبدالا». وحدّدت الحكومة الكوبية هدفاً يقضي بتلقيح 70 بالمئة من سكان البلاد البالغ عددهم 11.2 مليون نسمة بحلول أغسطس 2021، على أن يتم تلقيح الجميع قبل نهاية السنة».

لماذا عبد الله؟

واشتق اسم اللقاح من «مسرحية عبد الله» التي ألفها شاعر كوبا الشهير خوسيه مارتي الراحل عام 1895 عن 42 عاما، والمعروف بميله للعرب وتمجيدهم في كثير من قصائده، إلى درجة جعل معظم أبطال قصائده منهم، مثل بطل المسرحية الشعرية التي ألفها في شبابه، وجعل من شاب مصري من النوبة بطلها، واسمه عبدالله. (وكالات الأنباء وسكاي نيوز عربية، 22 يونيو 2021).

عقب انتشار الجائحة راحت الأخبار تنقل إلينا، كلاما عن أنواع مستجدة من المرض، طفرات جديدة، يُطلق عليها اسم سلالة متحورة من الفيروس الأصلي. فالمتحور أوميكرون(B.1.1.529) مثلا، ينتشر بسهولة أكبر من الفيروس الأصلي المسبب لمرض كوفيد 19 ومتحور دلتا. ويبدو أن أوميكرون يسبب أعراضًا أقل حدة. ويمكن أن يُصاب الأشخاص الذين تلقوا جرعات اللقاح كاملة بالعدوى المخترقة للقاح، ويمكنهم نقل الفيروس إلى غيرهم. وجاءت بعض النصائح بتلقي جرعة أساسية إضافية بعد الجرعتين الأساسيتين من اللقاح المضاد لكوفيد 19 بالنسبة لأصحاب المناعة الضعيفة. في الوقت الذي تزايدت فيه رغبة بعض الناس بعدم التعاطي مع اللقاحات عقب إصابة من تناولوها بالمرض.

صعبة للغاية

حاولت السلطات المصرية تعويض بعض الفقراء الذين أغلقت أمامهم أبواب العمل، أو توقفت مصانعهم وأعمالهم، ولكن الحال بصفة عامة أضحت صعبة للغاية، حتى بدأت الأمور تنفرج قليلا، في عام 2022.

وما كادت مضاعفات كورورنا تتراجع حتى شبت النار بين روسيا وأوكرانيا. وكان البلدان جزءا مما عرف بالاتحاد السوفياتي، طوال سبعين عاما، وبعد سقوطه انفصلت أوكرانيا ودول أخرى

عديدة، وصارت دولا مستقلة، ونمت فيها المشاعر الدينية والقومية من جديد، بعد أن حاولت الشيوعية في الاتحاد السوفياتي أن تمحوها، ولكنها كانت مخبوءة تحت الرماد كما يقولون.

ولأن أوكرانيا التي تعد سلة العالم في إنتاج الحبوب وخاصة القمح، أخذت خطا يتجه نحو الانتماء إلى الغرب الرأسمالي. ـ وأبدت رغبتها في الانضمام إلى حلف الناتو، فقد تحركت روسيا بقواتها الضخمة لتحتل شرق أوكرانيا التي تعده مواليا لها بالثقافة والمذهب الديني الأرثوذكسي، ويتحدث أهله اللغة الروسية، وكانت حرب روسيا على أوكرانيا نوعا من الحروب الصليبية التي باركها الأنبا كيريل رئيس الكنيسة الأرثوذكسية في موسكو، وحضر توديع الجنود الروس إلى ميدان القتال، مثلما فعل في توديع المقاتلين الروس وهم في طريقهم إلى سوريا منذ سنوات لحماية الأماكن المقدسة في دمشق وغيرها حسب زعمه!

الروس يسيطرون

تحركت القوات الروسية الضخمة إلى الأراضي الأوكرانية في أواخر فبراير 2022، وبدأ القتال عنيفا وضاريا وسقطت أعداد كبيرة من الطرفين، واستطاع الروس بعد شهور أن يخضعوا المناطق الشرقية من أوكرانيا لسلطتهم، وإن زعموا أن السكان هناك اختاروا الاستقلال عن أوكرانيا والتحالف مع الوطن الأم الذي

يتكلم الروسية، وقد أجريت انتخابات لم تعرف حقيقتها حققت للروس ما أرادوا من خلال بعض الجمهوريات الصغيرة التي لم تجد اعترافا دوليا.

وقف الغرب من وراء أوكرانيا وزوّدها بالسلاح والذخائر، وساعدها بالدعاية، وتبنى وجهة نظرها، وأتاح لرئيسها فلودمير زيلنسكي، وهو يهودي صهيوني متعصب يتبني وجهة نظر العدو النازي اليهودي في فلسطين المحتلة، ويعد القدس وفلسطين من حق اليهود الغزاة، أن يتحرك على امتداد عالمي واسع، وأن يدعو إلى مناصرة بلاده في العواصم الدولية والمؤتمرات العالمية، وأن يتلقى دعما ماديا ومعنويا من بلدان العالم الموالية للغرب.

موقف مضطرب

وكان موقف البلاد العربية والإسلامية مضطربا، فكثير منها موال للغرب والأميركان واليهود، وقليل منها تابع صريح للروس مثل سورية وإيران والسودان وليبيا (حفتر)، وقد حاولت بعضها أن تمسك العصا من المنتصف، ومع استمرار الحرب لأكثر من عام وشهور، فإن أفق انتهائها لم يزل مسدودا، وهو ما ينذر بمضاعفات على مستوى الغذاء، حيث تعتمد دول عديدة على استيراد الحبوب من أوكرانيا، وخاصة القمح والذرة.. وتشير الأزمة إلى احتمالية الجوع في بعض الدول المستوردة.

حاولت تركيا في أوائل الحرب أن تصل إلى اتفاق بين الأطراف المتحاربة وداعميها، لتأمين السفن التي تحمل القمح من موانئ أوكرانيا عبر البحر الأسود إلى العالم، وظل هذا الاتفاق ساريا لبضعة شهور، حتى انسحبت منه روسيا أخيرا بدعوى عدم مراعاة حقوقها ما أدى إلى رفع أسعار القمح ٪4 عند كتابة هذه السطور، فوق الزيادة الكبيرة التي جرت من قبل.. (يوليو2023).

وزاد من أزمة القمح أن روسيا دمّرت موانئ أوكرانيا البحرية على البحر الأسود، ولم يبق غير ميناء «أوديسا» الذي يقصفه الروس قصفا عنيف مستمرا بهدف وقفه عن العمل، وفي الوقت نفسه تحاول روسيا التقرب إلى الدول الإفريقية المتأثرة بأزمة القمح كسبا لتأييدها والوقوف إلى جانبها في الحرب، ودعمها ضد أوكرانيا والغرب، وذلك بالإعلان عن تقديم بعض المعونات من الحبوب، وقد نجحت قبل فترة في عقد اجتماع مع الدول الإفريقية في 27-28 يوليو 2023 في سانت بطرسبرج. ومع الضغط غير المسبوق من الغرب، فقد حضرت وفود رسمية من 48 دولة (27 دولة ممثلة على مستوى المسئولين الكبار: الأول والثاني) وأكبر خمس مجموعات تكامل في القارة.

إفريقية وروسيا

شارك في القمة الرئيس الروسي فلاديمير بوتين وغزالي العثماني رئيس الاتحاد الإفريقي، ورئيس اتحاد جزر القمر، وموسى فقهي

محمد رئيس مفوضية الاتحاد الافريقي ورؤساء دول القارة الافريقية.

وقال الرئيس الروسي فلاديمير بوتين في ختام المؤتمر: إنني على ثقة من أن النتائج التي تم تحقيقها تشكل أساسا جيدا لزيادة تعميق الشراكة الروسية الأفريقية لصالح ازدهار ورفاهية شعوبنا». وأعلن المشاركون التزامهم بالبناء المشترك لهيكلية جديدة وأكثر عدلا ومتعددة الأقطاب للنظام العالمي على أساس المساواة في السيادة بين الدول والتعاون متبادل المنفعة. واعتمد المشاركون 5 وثائق رئيسية حول القمة الروسية الأفريقية، ومنع سباق التسلح في الفضاء الخارجي، والتعاون في مجال ضمان أمن المعلومات، وتعزيز التعاون في مكافحة الإرهاب، وخطة عمل منتدى الشراكة الروسية الأفريقية للفترة 2023-2026.

وهكذا يبدو الروس قد حققوا جانبا دعائيا لا يستهان به في مواجهة الغرب والولايات المتحدة، في الوقت الذي يتعثر فيه الهجوم الأوكـراني المضاد الذي أعد له الغرب منذ شهور قبل انطلاقه، وتبدو في الوقت الحالي مفاوضات الحل أو وقف إطلاق النار بعيدة المنال، ولكن المؤكد أن الدمار الذي أصاب مدن أوكرانيا وبنيتها الأساسية كان كبيرا، فضلا عن الخسائر في الأرواح على الجانبين الروسي والأوكـراني، ثم هجرة ملايين الأوكرانيين إلى خارج بلادهم هربا من القصف. وشهدت حرب المسيرات أخيرا

تطورا كبيرا، فقد وصلت المسيرات الأوكرانية إلى موسكو، مثلما كانت المسيرات الروسية وما زالت تصل إلي كل مكان في أوكرانيا.

لعب الصغار

بقي في هذا الأمر أن محاولة العرب الانحياز إلى طرف نكاية في الطرف الآخر ومكايدته، مسألة أقرب إلى لعب الصغار، فالدول الكبرى والقوية عموما تسعي إلى الوصول إلى مصالحها السياسية ومنافعها الاقتصادية وهيمنتها الثقافية. قد ترفع شعارات خادعة عن الحريات والتعاون الدولي والسلام العالمي والأخوة الإنسانية والتسامح الديني والفكري، ولكنها في الحقيقة أول من يهدر هذه الشعارات، وأول من يشارك في تحطيم القيم الإنسانية وإهدار القانون الدولي الذي شاركت في وضعه وصياغته. والأولى بنا أن نحرص على مصالحنا وثرواتنا فلا تكون لقمة سائغة في أفواه الضباع المتوحشة، وفي الوقت نفسه نقدم للعالم صورة راقية من مواقفنا الإسلامية التي تحرص على حماية إنسانية الإنسان، وكرامته ووجوده. لقد كتبت فصلا عندما اشتعلت الحرب صورت فيه الغرب (أوكرانيا مجرد أداة) والروس بالضباع المتهارشة، التي لا يعنيها إلا إشباع رغباتها الوحشية، ونحن لا ناقة لنا ولا جمل في أي صراع خارج حدودنا.

لقمة الخبز

ترى هل تتوقف الحرب قريبا؟ الله وحده أعلم، ولكن استمرارها يهدد لقمة الخبز التي نتناولها في ظل أزمة اقتصادية خانقة، تبحث عن الدولارات لشراء القمح والذرة، وديون وفوائد ديون تقتضي التسديد والتقليل من مضاعفات التأخير!

الأسعار في ديارنا ترتفع مع مطلع كل صباح، والجنيه لم تعد له قيمة، والألف جنيه تعادل عشرة قروش قبل ثلاثة عقود. شيكارة البصل من النوع المتواضع بألف جنيه اليوم، وكانت في التسعينات بعشرة قروش. لماذا أضرب المثل بالبصل؟ لأن القوم في زمن مضى حين كانوا يحقرون من قيمة شيء ما يقولون: إنه لا يساوي بصلة! البصلة الآن تهزّ مرتب أستاذ الجامعة الشريف. أي الذي لا يمارس عملا غير التدريس والإخلاص لطلابه وحدهم.

كيف نربي أولادنا في ظل هذا الخلل الاجتماعي والاقتصادي الخطير؟

لا أدري أيضا، ولكن الحل يكمن في تفاهم أهل الحل والعقد على منهج يستبعد التمييز والمحسوبية وتفضيل أهل الجهل على أهل العلم، ثم إطلاق سراح الشعب في شتى الاتجاهات ليتعلم ويعمل وينشئ.

4 - الجامعة: خريف الصمت!

ترتسم الجامعة في ذهني دائما في صورة دار العلوم.

أراها الجامعة الحقيقية بتقاليدها وأساتذتها وعلمائها وطلابها وموظفيها وعمالها، وقبل ذلك وبعده هيبتها وشموخها وجلالها وجمالها. كانت الحلم الذي حلمت به مذ وعيت معنى الجامعة والالتحاق بها، فهي من أقدم الكليات التي أنشئت في القرن التاسع عشر، بمعرفة علي مبارك عام 1872م، وقد تطورت دار العلوم إلى أن أصبحت إحدى المدارس العالية، وضُمّت لجامعة القاهرة عام 1946م، وأصبحت تسمى كلية دار العلوم محتفظة باسمها التاريخي العزيز. وكانت تسمى مدرسة، ويضاف إليها وصف التجهيزية أو العليا، وتسطع على جبينها المقولة الشهيرة للإمام محمد عبده: «تموت اللغة العربية في كل مكان، وتحيا في دار العلوم». شعارها الذائع الذي نقش على مدخلها عندما كانت في مبناها العريق بالمنيرة (المبتديان)، ويبدو أنه قد أزيل عندما انتقلت إلى مبناها الجديد في منطقة بين السرايات التي تضم عددا من كليات الجامعة ومعاهدها: الآداب الإعلام، الحقوق،...

تفاعل حضاري

دار العلوم/ الكلية، تمثل تاريخا مشرفا للعلم والدين والوطنية والاستقلال والشموخ، وكثير من أعلامها نبغوا في مجالات عديدة، وكانوا قادة للأمة كلها وليس الوطن وحده، في المعرفة وخدمة الإسلام واللغة، والتفاعل مع معطيات الحضارة البشرية من خلال الوعي بالحضارة الإسلامية الإنسانية. وإذا أردنا أن نضرب أمثلة فلن تكفي الصفحات لرصدها. يكفي أنهم في معظمهم إن لم يكن كلهم يمثلون الهيبة والترفع عن المواقف الرخيصة والسلوك الهابط. حتى الأجيال الجديدة التي لم يسلم بعضها من التأثر بسيولة القيم في المجتمع، ظلت متماسكة محافظة على النواة الصلبة للقيم، حريصة على أن تعبر عن هوية الأمة والوطن جميعا.

أقرأ وأكتب

إلى يوم الامتحان الشفهي في آخر عام بالليسانس لم أجرؤ على الاقتراب من غرف الأساتذة، جلست وحدي أمام بعضهم وكان إنسانا ودودا، تحول إلى أب حنون فرحٍ بابنه المتميز، حين اكتشف أنني أقرأ وأكتب في الصحف والمجلات، وليس مجرد طالب يقرأ الكتاب المقرر وحسب.

اقتربت من هذه الغرف مرة واحدة قبل نحو عشر سنوات من الليسانس، حين طلبت من العامل الذي يجلس أمام إحداها أن يبلغ أستاذي الدكتور أحمد هيكل (وزير الثقافة الأسبق)، رحمه الله، أنني قادم من طرف صديق له، ليحل مشكلة لي. كنت مجندا، وكان القانون الذي صدر فور الهزيمة ألاّ يقيد طالب ما لم يؤد الخدمة العسكرية، أو يعفى منها، ولكن حالتي كانت تقضي بحفظ المكان فقط. خرج معي الأستاذ المتواضع المهيب وذهب بي إلى المسجل (يسمى الآن أمين الكلية)، واعتذر الرجل عن عدم القيد، وهو ما أحزن الأستاذ الذي تأثر كثيرا، وقال له: كيف تمنعون مقاتلا من الدراسة والعلم؟ أخرج الرجل نص القانون، وقال: يوم يأتيني- يقصدني- بشهادة الخدمة، سيقيد على الفور ويدخل الامتحان، وقد جاء هذا اليوم بعد ست سنوات تقريبا، ورأيت في عيون الرجل أسفا على الزمان الذي مضى، وساعدني في مسألة عرض الأوراق، والحصول على موافقة المختصين لأدخل الامتحان!

خمسة جنيهات

ظللت أهاب بعض الأساتذة الشباب وبعضهم كان مقاربا لي في السن، حتى السنة الثالثة، حين حصلت على جائزة النقد الأدبي، وكان الدكتور الربيعي قد خصصها للحاصلين على تقدير امتياز، وقيمتها خمسة جنيهات، وتمثل في ذلك الوقت مبلغا كبيرا، جلست

لأول مرة مع الدكتور شفيع يرحمه الله الذي قال لي: أنت زميل، وحياني بمشروب من البوفيه. وظل طعم المشروب والجنيهات الخمسة في فمي ووجداني حتى الآن.

لم يسمع أبدا طالب في دار العلوم أو معيد أو مدرس مساعد بما يجري أو يدور أو يحدث بين الأساتذة. كانت هيبتهم تفرض أن يكون حوارهم أو خلافهم بعيدا عن الآخرين من غير الهيئة، يراهم الطلاب كأنهم ملائكة، وإن كانوا في الحقيقة بشرا يتفقون ويختلفون، ولكنهم كانوا حريصين على الصورة العامة، والهيبة التي ينبغي أن تقف حائلا بينهم وبين الابتذال والتدنّي.

الوقار والاحترام

هيبة أستاذ دار العلوم كانت تمتد إلى خارج الكلية، وتصل إلى أكبر رجال الدولة، ففي الزمن الماضي كان الأستاذ يملك من الشخصية والوقار والاحترام، والتواضع أيضا ما يجعل الناس تهابه، وتقيم له في داخل قلوبها مكانة رفيعة.

كثيرون يروون قصة قصيرة طريفة في أواخر عهد الملكية لعل بطلها كان السياسي الأشهر على ماهر رئيس الوزراء، و الحاكم الفعلي للبلاد، اتصل الرجل عقب الامتحانات بأستاذ في الكلية وكان من المعمّمين، وعرّفه بنفسه فرحب به الشيخ، وأخبره الرئيس

أن ابن أخته طالب عنده، وأنه يوصيه به خيرا، فرد الشيخ، بأن الطلاب كلهم أبناؤه، ووضع سماعة الهاتف، ثم طلب من بعض مساعديه ورقة امتحان الطالب الذي أوصى به رئيس الوزراء، وشهد المساعدون الشيخ يراجع الورقة ويشطب درجة الطالب، وينقصها درجة، وقبل أن تنتهي دهشة زملاء الشيخ، قال لهم: إنني أعطي الطلاب جميعا درجة زائدة عن حقهم الطبيعي خشية أن أظلم أحدهم. أما هذا الطالب فلا يستحق درجة زائدة، بعد أن راجعت ورقته مرة أخرى!

وصل خبر ما فعله الشيخ إلى رئيس الوزراء، الذي بادر على الفور بالاتصال ثانية بالشيخ معتذرا ومكررا اعتذاره، ومؤكدا أنه لم يكن يقصد من وراء حديثه إلا مجرد التوصية بالأبوة وتشجيع الطالب، وكان جواب الشيخ أنه يعامل الطلاب مثل أبنائه ويسوّي بينهم في المعاملة.

هكذا كان الأساتذة في زمن مضى، لا يرهبهم منصب مهما علا، ولا يخيفهم مسئول مهما كان نفوذه! ولذا استحقوا احترام المجتمع!

المكانة والاعتبار

اليوم نرى عجبا في الجامعات الأخرى، كم من أستاذ أسقط مكانته واعتباره مع الطلاب والعمال وأولياء الأمور وخاصة من

ذوي النفوذ! بل إن بعض المحسوبين على الأساتذة لا يجد لذة في التعبير عن فشله وضعفه وسطحيته إلا بالتبسط والجلوس مع الطلبة والطالبات أوقاتا طويلة دون داع، ليبدي لهم قوته ونفوذه وأهميته، وليت ذلك يصبّ في صالح العلم والمعرفة، وللأسف، فإنه لا يخرج عن اللغو والثرثرة، والنميمة حول الزملاء والزميلات، ويدخل في مجال تدبير الفتن والمؤامرات لزملائه الفائقين والنشطين، ولا يستغرب بعدئذ أن تجد أخبار الهيئة وأدق أسرارها على لسان الطلاب والعمال.. ومع سقوط الهيبة والاعتبار، صار أمرا معتادا أن يقتحم الطلاب مكاتب الأساتذة بغير استئذان للسؤال عن موضوعات هامشية، مثل الامتحانات وطريقتها، أو الكتاب وأين يباع، ونتيجة المادة ونسبتها، أو يتزاحموا أمام غرف الأساتذة في فوضى وصياح أقرب إلى الهمجية، حيث يعدون صخبهم مزاحا على طريقتهم الحديثة، ما يجعل سلوكهم يندرج تحت لافتة ضياع هيبة الأستاذ، وتراجع مكانته، بل إنك تجد الطلاب يغشّون والأستاذ يمر بين مقاعدهم دون أن يهتز لهم جفن، لأنهم يعلمون أن الأستاذ أضحى مجرد مدرس في سنتر أو درس خصوصي يخضع لإرادة التلميذ.. ولم لا، والأستاذ يلقنهم أخبار رفاقه، التي تزري بهم وتقلل من قيمتهم؟

أفضل العناصر

في الماضي كان تكوين الأستاذ الجامعي يمضي وفقا لعرف، أن يكون من أفضل العناصر خلقا وسلوكا، وعلما وعملا، وقدرة على التفاعل مع المجتمع الجامعي وفقا لتقاليده، وكان أساتذة الكلية الذين يختارونه يعلمون تفاصيل تكوينه العلمي والثقافي، ويزكونه لمعرفتهم بقدراته وإمكاناته، سواء كان من الذين جلسوا في مقاعد الدراسة أمامهم، أو جاء من خارج الكلية. يرونه طالب علم مجتهد، من خلال مناقشاته في المحاضرات، وأسئلته العلمية الجوهرية، وقراءاته التي تتجاوز ما يسمى الكتاب المقرر، وتتداخل مع القضايا الفكرية والثقافية خارج المجتمع، وقد يجمعون على صلاحيته من قبل أن يسعى ليكون أستاذا زميلا.

اليوم فإن الكليات اتجهت لتعيين بعض الأوائل ليكونوا معيدين، وهذا مقياس لا بأس به إذا تم إدراجه في سياقه السليم. هناك طلاب يحفظون ما يسمى الكتاب المقرر، ومن خلال محفوظاتهم يجيبون على الأسئلة، ويحصلون على أعلى الدرجات، يستوى في ذلك طالب الليسانس أو الدراسات العليا التي لها اليوم مقررات في التمهيدي الخاص بالماجستير أو التمهيدي الخاص بالدكتوراه، (وفقا لما يسمى نظام الساعات المعتمدة)، ولأن الطالب تعود على حفظ الملخصات، وتحديد ما يسمى صفحات المقرر، فلن

تجد طالبا خارج هذا الإطار إلا نادرا، يحاول مطالعة أوسع في مجال تخصصه أو الثقافة العامة!

الإضافة المميزة

أتحدث هنا عن الكليات النظرية التي تهتم بالآداب والفنون، ولا أتكلم عن الكليات العملية، التي تعتمد على التجربة والتطبيق العملي، فهذه الأخيرة تبدو أكثر موضوعية إن صح التعبير، حيث يقدم الباحث فكرة جديدة غير مسبوقة يطبقها وفقا لنظام معين، ويراها المشرف أو المشرفون إضافة محسوسة تمت تجربتها وحققت فائدة في مجالها، فأضحت منسوبة لصاحبها، ولكن كليات الفكر النظري والتراث المعنوي والآداب المختلفة، لا تتيح للباحث أن يبرز الإضافة المميزة المحسوسة، وربما يكون الطالب قد تناول موضوعا في مصر، تم تناوله غيره في بلد عربي أو أجنبي آخر، وتطابقت النتائج أو اختلفت، دون أن يدري الطرفان عنها شيئا، أو يعلم أحدهما بما فعله نظيره بعد حين.

الفكرة والتطبيق

وأيا كان الأمر، فإن أزمة البحث العلمي في الكليات النظرية تتفاقم من حيث الفكرة والتطبيق، أقصد من حيث اختيار الموضوعات وتنفيذ البحث، وبات الأمر مختلفا عن الماضي تماما،

فقد كان الطالب الباحث في الماجستير يجدّ ويكدح في اختيار الموضوع، ولم يكن هناك ما يسمى بالسيمنار الموجود الآن، (حلقة البحث)، فقد كان الأستاذ محتفظا بمكانته من حيث الثقة في تقديره، والإيمان بقدراته على الحكم على الطالب وتوجيهه من حيث اختيار الموضوع والكتابة فيه، أما الآن فالأمر مختلف حيث يجد الطالب في بعض الكليات بمجرد أن ينهي امتحان التمهيدي، مشرفا يقدم له الموضوع الذي سيكتب فيه، مع الخطة والمصادر والمراجع التي لم يسمع عنها من قبل أو يشاهد بعضها ولو في مكتبة الكلية.

خيال الحقل

في مرحلة التمهيدي للماجستير كنت أدرس لبعض الطلاب موضوعا خاصا في الرواية، ورحت أسأل الطلاب عن الروايات التي طالعوها، ذكر بعضهم أسماء روايات درسوها في مرحلتي الإعدادي والثانوي، وقلة أشارت إلى رواية أو أخرى طالعوها بعد أن سمعوا عنها في أجهزة الدعاية التلفزيونية أو الإذاعية أو الصحفية، طالب من القادمين من الأزهر الشريف، سألني ببراءة:

- ما ذا تعني كلمة رواية؟

تبسمت، وقلت له:

- تعني حكاية، أو حدوتة. هل قرأت واحدة منها؟

قال:

- لا.

ثم استدرك:

- قرأت خيال الحقل في الصف السادس الابتدائي!

ضحكت وقلت له:

- هي قصة عن حرب رمضان، تم إعدادها لتتناسب مع مستوى الأطفال، فيما أذكر، وربما كتبت خصيصا لهم!

وعرف طالبنا الهمام معنى الرواية لأول مرة، ومن الطريف أنه حصل على الدكتوراه أخيرا، وأفاد من العلاوة المقررة على راتبه الشهري في الوظيفة التي يعمل بها. وأظنه لن يفكر في قراءة رواية أو ديوان شعر بعد أن صار «دكتورا»! ولله في خلقه شئون.

الإشراف والمناقشة

وكما سبقت الإشارة فإن الطالب عند كتابة بحث الماجستير أو الدكتوراه، يجد عونا غير محدود، من أساتذته المشتاقين إلى الإشراف والمناقشة، في اختيار موضوع البحث، وخطته ومصادره ومراجعه التي لم يسمع عن معظمها كما قلت، ثم يحظى بسرعة عجيبة في إنجاز البحث، من خلال توظيف زملائه من المعيدين

والمدرسين المساعدين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، لخدمته وتوجيهه ومساعدته، وفي عصر الشبكة الضوئية أو النت تُحلّ كثير من الأمور، فالموضوعات النظرية كثيرة وشائعة على الشبكة، والكتابات بغير حصر، وقبل أن تتم المدة القانونية للبحث يكون الطالب قد أعد رسالته، واستعد للمناقشة.. ويتم اختيار المناقشين المريحين الذين لا يدخرون جهدهم في الثناء على الطالب ومشرفه، ولا بأس أن يخبط أحد المناقشين في بعض القضايا- ولو كانت غير وثيقة العلاقة بالموضوع- لإثبات جدية المناقشة وتحليل دم الرسالة بالبسملة والتكبير، حتى لا يقال إنها مضت دون ذكر السلبيات.

وتنتهي المناقشة عادة بأعلى تقدير تعقبها زغاريد وتهنئات وتصوير على المنصة وخارج المنصة.. وكأن الرسالة تقدم جاهزة (ديليفري) مع الشكر والتحية!

إعلانات كثيرة

من المعتاد أن تسمع كلاما مرسلا ولغطا كبيرا حول هذه الرسالة أو تلك وكتابها الحقيقيين، ولم يعد الأمر غريبا، بعد أن تصافح عينيك الكليلتين على الشبكة الضوئية إعلانات كثيرة لمكاتب تحمل لافتات مراوغة وعناوين خادعة، تخص تصميم الرسائل العلمية أو تجليدها، أو تقديم المصادر والمراجع، وكل ما يهم حول إعداد الرسالة الجامعية للماجستير والدكتوراه، مع الإشارة إلى أن المكتب

أو المؤسسة التي تعلن عن خدماتها، تضع هواتفها ووسائل الاتصال المختلفة، لمن يعنيهم الأمر أي من يكتبون الماجستير والدكتوراه، وخاصة للطلاب القادمين من خارج البلاد. بعض هذه المكاتب تختصر الطريق، وتعلن أنها تساعد الطلاب على كتابة أبحاثهم بأفضل الأسعار، وبالطبع هناك أفراد أو مجموعات تقوم بالمهمة دون إعلان، ويمكن التواصل معهم بطريقة ما قد يعرفها الأساتذة المشتاقون للإشراف والمناقشة، من مكان إلى آخر، أو من كلية في جامعة ما إلى نظيرتها في جامعة أخرى.

التفسير المادي

يفسر بعض الناس هذا التهافت على الإشراف والمناقشة تفسيرا ماديا، فالقانون يمنح مبالغ هزيلة لمن يشرفون أو يناقشون. المشرف يتابع الطالب على مدى سنتين أو ثلاث في المتوسط، ثم يتقاضى مبلغا زهيدا لا يشتري كيلو واحدا من اللحم المستورد (أرخص أنواع اللحم)، والمناقش يأخذ مائة جنيه تخصم منها عشرون جنيها وبعض الجنيه فيكون الصافي 79 وبضعة قروش(عملة لا وجود لها الآن)، وهو مبلغ يمنحه الأستاذ للعامل في القسم أو المصعد بوصفه إكرامية أو صدقة مهذبة!

لماذا يتهافت بعضهم على الإشراف والمناقشة، ويتقاتل مع زملائه من أجلها.. هنا يأخذ التفسير المادي أبعادا أخرى لا أحب

الخوض فيها، ولكني أؤكد أن هناك أساتذة فضلاء يبذلون من جيوبهم ما يساعد الطالب الذي يستحق ويصلح على إنجاز بحثه أو رسالته، فقد أعطاهم الله ما ييسر لهم الحياة بعيدا عن الراتب الحكومي الضئيل الذي يتقاضونه، ولا يتناسب مع انحطاط العملة وارتفاع الأسعار، وكثرة الالتزامات، ولا يمثل نصف القيمة التي كان يتقاضونها قبل نصف قرن!

كرامتهم أكبر

ثم إن هناك أساتذة فضلاء يبتعدون عن مواطن الشبهات، ويحترمون أنفسهم فلا يخضعون للطالب السطحي، أو يتفقون معه على الإشراف. فكرامتهم أكبر من ذلك، وأذكر أننا كنا نحلم في دار العلوم بالأستاذ الذي يقبل الإشراف. كان الطالب يكتب طلبا يرفق به الخطة للبحث الذي اختاره، وفي جلسة القسم يتم اختيار المشرف الذي يعرفه الطالب بعد حين، ويذهب إليه كل فترة ليعرض عليه ما وصل إليه في عمله.. اليوم يقوم الهاتف الذكي بدور كبير، وكثيرا ما يكون الأستاذ المشرف هو صاحب المبادرة في الاتصال، ليحث طالبه على الإسراع، وترتيب إجراءات المناقشة، وما يتعلق بها!

قد يسألني سائل: أين أنت في قلب هذه الدائرة؟

لا أذيع سرا، أنني بعيد بصورة شبه تامة عن الإشراف

والمناقشة. لا يأتيني طالب لأشرف عليه، ولا يكلمني زميل لأشاركه مناقشة، إن حضوري صامت، فقد صرت متفرغا لا شأن لي بالإدارة أو القيادة. فضلا عن ترفعي عن مخاطبة طالب لأشرف عليه! ولكن: لأسباب إدارية محضة تتعلق بالمكافأة التي يتقاضاها مثلي من المتفرغين، أي الذي خرجوا إلى التقاعد بعض الستين. أقول لزميل أتوسم فيه بعض الاستجابة، خذني معك مشرفا مشاركا كي لا يسقط البدل، أو اسمح لي بمناقشة تجعلني داخل النظام العلمي، بعد الاستجابة يتاح لي كل عام الجلوس على منصة المناقشة، مرة أو مرتين!

كتابة الرواية

لست آسفا على شيء. وبدلا من الوقت الذي أهدره مع طالب سطحي لا يحسن القراءة ولا الكتابة، بل ينتظر أحيانا أن تكتب له بحثه وتنسخه على الحاسوب فإني أقرأ وأكتب، وأحمد الله أنني لا أتوقف عن إنتاج الكتب، وفي السنوات الأخيرة أتيح لي أن أمارس هوايتي المفضلة بكتابة الرواية التي هجرتها طويلا، وقد سجلت فيها بعض ملامح الأوضاع الجامعية الخاصة بالأساتذة والطلاب والموظفين، وتناولت ظواهر لم يسبق إلى تناولها أحد مثل ظاهرة الغش في الامتحانات، وتجلياتها في مجتمع سيولة القيم! وبالتأكيد فقراءة كتاب أجدى من قراءة رسالة سطحية لا تضيف شيئا، ولا

تعبر عن وعي بحثي أو دراسي. وتأليف كتاب أجدى من مناقشة عشرات الرسائل، أو الإشراف عليها، ورب ضارة نافعة.

كنت أقول إن الطالب ينبغي أن يستفيد من الأستاذ، وواجبي أن آخذ بيد من نتوسم فيهم الخير من الطلاب، ونوجههم إلى القراءة المفيدة، والبحث المثمر، وللأسف فإنهم لا يريدون، أو لا يريد المشتاقون أن يفيدوا من أساتذتهم.

حركة صعبة

كانت ظروفي الصحية منذ عقدين من الزمان غير جيدة، وزاد عليها آلام المفاصل التي اشتدت عندما كنت في زيارة إلى اسطنبول بتركيا حوالي عام 2007، أو 2008. واضحت حركتي صعبة، ولكني كنت أقاوم، وأذهب إلى المحاضرات المباشرة، المسافة بين سكني في إحدى القرى ومقر الكلية طويلة(حوالي ستين كم)، والطريق يغص بالحفر والمطبات، وكثير من أماكنه ضيقة، وهو أفضل من طريق آخر يزدحم بأنواع السيارات الخفيفة والثقيلة، ناهيك عن التكاتك والتروسيكلات، وفي الصباح والمساء قد يزعجك ويعطلك بعض المزارعين وهم يقودون حيواناتهم أو مواشيهم وهم في طريقهم إلى الحقل أو العودة منه. كنت أقود سيارتي بنفسي، وعندما تراكمت المتاعب الصحية جعلت بعض أبنائي، يقودون بي، وكنت أشعر بشيء من الأسف لأني أعطلهم عن دراستهم أو عملهم عندما

كان لهم عمل متواضع بأجر متواضع.، وبعد ثورة يناير وما جرى لها لم يعد لهم غير معاونتي في الذهاب إلى المحاضرات.

أنت ترفض

بالطبع لم يسع إلى طالب من أجل الإشراف، ولم يحاول القسم العلمي أن يرتب المسألة ترتيبا عادلا، بل إنني في إحدى المرات عندما كانت تثار هذه القضية، كنت أمزح، وأقول لهم الشباب أحق، فهم أعلم منا، فاتخذوا من مزحتي وثيقة يشهرونها في وجهي: أنت الذي ترفض!

المفارقة أن الطالب الـذي ناقشته العام المـاضي مثلا، وصار(دكتورا) ومدرسا بالقسم لديه إشراف على عدد كبير من الرسائل في سنة واحدة، بينما أنا لا أشرف (شكليا) إلا على رسالة واحدة أو اثنتين منذ أعوام!

قبل ربع قرن تقريبا كنت رئيسا للقسم وأردت معالجة الخلل في مسألة الدراسات العليا، وشجعني عميد الكلية آنئذ لأضع نظاما محكما يعيد بمقتضاه فتح باب التسجيل للدراسات العليا في القسم، وكان هناك قرار سابق من إدارة الكلية بإغلاق باب التسجيل بعد اكتشاف الخلل الصارخ، وقد وضعت خطة ملخصها البسيط، أن تتضمن الأبحاث موضوعات في فروع التخصص جميعا، مع التركيز

على الفروع الذي يهرب منها الباحثون، وأن يشارك أعضاء القسم جميعا في الإشراف، بمعنى أن الرسالة الواحدة يمكن أن يشارك في الإشراف عليها ثلاثة، أستاذ وأستاذ مساعد ومدرس، وأن يكون الإشراف دوريا حتى لا يحرم منه أحد.. وأن يراجع الطالب رئيس القسم ليحدد له فرع التخصص المطلوب تغطيته بالبحث.. وبهذه الخطة تخلصنا من الطلاب السطحيين، ولم يصبر علينا غير الجادين، وشاعت حركة نشطة بعيدا في البحث والقراءة والمتابعة، واختفت المماحكات والمناوشات التي كان يستغلها بعضهم لتعطيل الطالب أو إحراج المشرف، وأضحت سمعت القسم في أرجاء الجامعات الأخرى مقرونة بالإجلال والهيبة، ويكفي أن الطلاب كانوا يتهامسون أو يتعالنون بأن قسم اللغة العربية في طنطا «نار»، أي جاد للغاية.

تحالف المشتاقين

وهذا الأمر لم يعجب بعض المشتاقين الذين يشكلون في العادة تحالفا من أجل تبادل المنفعة، وخاصة عند مناقشات السيمنار. فأسلحتهم القاطعة هي الصوت العالي والتشويش والمغالطات، يستوي في ذلك من يشار إليهم بوصفهم ينتمون إلى نوع الرجال، ومن يوصفون بالنوع الآخر: النساء! هادفين في نهاية الأمر لتعطيل الموضوع الذي لا ينسجم مع رغبة التحالف، أو إحراج الأساتذة المشرفين الذين لا يشاركون التحالف البائس غاياته.

ما رأيت في جامعات عريقة أو حتى حديثة مثل هذا الأسلوب الشاذ في الحوار أو التفاهم حول قضايا علمية وبحثية، وتطاول الشباب على الكبار، وفرض الرأي بقوة الصياح والصراخ في أمور لا تستدعي هذ الابتذال أو التدني!

وعندما رغبت في أن تكون التقاليد الجامعية الرفيعة هي منهج الحوار والعمل، ورفضت أن أستخدم صلاحياتي القانونية في العقاب والردع، اتهمني بعضهم بالضعف وعدم القدرة على إدارة القسم... ويبدو أن بعض المصريين عموما تصدق عليهم مقولة العبودية واستخدام العصا، «لا تشتر العبد إلا والعصا معه، إن العبيد لأنجاس مناكيد!» هذا القول صادق في العبيد بغير ريب، ولكن أساتذة جامعة، كيف يصيرون عبيدا؟ ويحتاجون إلى عصا؟

إنني أتذكر أيضا المثل الذي يشير إلى المعنى دون ذكر العبيد: من أمن العقاب أساء الأدب؟

الرغبة السادية

المفارقة أن بعض هؤلاء حين تسلم رئاسة القسم فيما بعد كانت قسوتهم على زملائهم خارج التحالف إياه شديدة، لقد حرموهم مما كان يسمى يومئذ حافز الجودة وهم في أشد الحاجة إليه، بدعوى سخيفة أنهم لا يحضرون كل أيام الأسبوع، مع أن بعضهم مريض، وبعضهم ليس مطلوبا منه عمل، وبعضهم يقيم بعيدا عن الكلية،

ولكن الرغبة السادية في الإيذاء والتغطية على الفشل العلمي والفكري والثقافي تبقى أقوى وأشد، وما بالك برئيس قسم متعجرف، لا يعرف كيف ينطق اسم الشاعر القديم «الشنفرى»، هل أحكي لكم كيف كان ينطقه؟ ليس ضروريا! لأن المذكور لا علاقة له بالشعر ولا الشاعر، مع أنه كان رئيس قسم اللغة العربية! تسألني كيف وصل إلى هذا المنصب؟ هذه حكاية أخرى!

تحركات رخيصة

ولأن القوم لم يكونوا على وفاق مع التقاليد والآداب العامة، فقد تحركوا في ظل رئاستي تحركات رخيصة لنشر أكاذيب ومفتريات في بعض الصحف الحزبية المحلية بالمدينة، ثم تتبّع ما أكتب وابتسار بعض العبارات والفقرات من سياقها لتحريض الجهات المختصة.

وأخذت الأمور عندهم مجرى آخر، فكتبوا مذكرات وشكاوى، مليئة بالادعاءات والافتراءات التي لا أعلم عنها شيئا، واكتشفت بعد حين أن بعضها يخص غيري، ولأني فلاح ساذج يثق بالناس ولا يظن بهم إلا الخير، فقد أدخلنا التحالف غير الطيب إلى متاهة تحقيقات دبر لها من تصوروا أنني أسعى إلى منافستهم في المناصب الإدارية بالكلية وخارجها، مع أنني- طوال عمري- ما سعيت إلى منصب، ولا وضعته في حسباني، وكانت القراءة والكتابة هي هدفي الأكبر مذ وعيت أمر القراءة والكتابة.

عقل خاص

المناصب الإدارية وبال على صاحبها وعلى الكلية وعلى العلم. الإدارة تحتاج إلى عقل خاص لا يشغله البحث ولا القراءة ولا الكتابة، ولعلهم في الغرب يجعلون أمر الإدارة بيد الموظفين الذين ينفذون ما يتفق عليه الأساتذة أو مجلس الأمناء أو مجلس الكلية أو الجامعة.

ماذا يبقى حين يتصارع الأساتذة على منصب رئيس قسم أو وكيل كلية أو عميد أو رئيس جامعة؟ تبقى الحزازات والإحن والبغضاء والفتن والمؤامرات ورغبات الانتقام والتشفي والتنكيل بالمنافسين.

عقب ثورة يناير تغير نظام اختيار قيادات الجامعة إلى الانتخاب بدلا من التعيين، وهو نظام جيد، إذا كان المناخ التعليمي صالحا لقبول نتيجة الصندوق، الواقع يشير إلى أن المتطلعين إلى المناصب لم يرحبوا بنظام الانتخاب، لأنه لا يحقق طموحاتهم، ولذا فرحوا للغاية بإلغاء الانتخابات، وأبدوا استعدادا للتنازلات بغير حدود في سبيل الوصول إلى المنصب أيا كان! وأعتقد أن القيادة التي تتنازل تسيء إلى نفسها وإلى العلم والجامعة جميعا.

أقدم أستاذ

أرى أن الأمر يكون سهلا وبسيطا إذا اتفقنا أن إبعاد القيادات الجامعية عن الأمور المالية والإدارية وتفرغهم للعلم والبحث،

وإسنادها إلى موظفين أكفاء، سيحل كثيرا من المشكلات، فضلا عن إسناد قيادة القسم أو الكلية أو الجامعة إلى أقدم أستاذ في كلّ منها، مع رواتب عادلة تليق بمتطلبات أستاذ الجامعة من مظهر وكتب ومستلزمات تجارب، وتوفير وسائل مواصلات محترمة (وفي الجامعات سيارات عديدة) تنقل الأستاذ إلى أماكن المناقشات والحلقات البحثية والمؤتمرات الداخلية.

بهذا ينتفي الـصراع أو يتقلص، لأن ما يحكم العلاقة بين الأساتذة هو الأقدمية، ولا يدخل في ذلك المتفرغون، لأنهم أخذوا نصيبهم حتى التقاعد بعد الستين.

إسقاط النظام

بعد أن تركت القسم ازدهر المشتاقون للإشراف من جديد، وأسقطوا النظام الذي وضعته، وقال أحدهم معبرا عن رفض المشاركة معه في الإشراف: «لماذا أعطي جهدي لغيري؟»، وكأنه وحده هو الذي يبذل جهدا في الإشراف، والآخرون لا يفقهون شيئا!

وكأن المجتمع الجامعي يميل إلى سيولة القيم، ويغطس فيها إلى أذنيه، ولا يبالي بالغد أو المستقبل. هل أضرب مثلا بدار العلوم ثانية؟ كان أساتذتها لا يشرفون على موضوع إلا إذا رأوا أنه يستحق البحث والإضاءة، وأن الطالب بذل جهدا كبيرا في القراءة والمطالعة

حتى وصل إلى اختياره. وكان بعضهم يستمتع حين يطلب في مجلس القسم الإشراف على موضوع متميز، ليقدم لأهل التخصص بحثا جديرا بالذكر والمتابعة.

هل نقارن ذلك برسائل (الديليفري)؟!

فريضة العمرة؟!

لقد احتفظت ببعض ما كتبت تعليقا على بعض السلبيات المتعلقة بموضوع البحث العلمي، وكان بعض المشرفين والمناقشين يفتقر إلى معرفة أبجديات البحث والمصطلح قد أقصاني عن مناقشة رسالة دكتوراه حول تفسير الإمام محمد عبده وجهود تلميذه محمد رشيد رضا. المفارقة أن من قام بالإقصاء وهو أستاذ دراسات إسلامية كما يسمى، لا يعرف الفارق بين الفرض والسنة، فقد كتب طلبا لرئيس القسم يطلب إجازة لأداء فريضة العمرة!

كتبت التعليق التالي على نقاش مجلس القسم:

يوم 1/ 11/ 2022، وكان بعنوان:

هل هي سياسة الكيل بمكيالين؟

«بالأمس تم رفض مشاركتي في مناقشة رسالة عن التفسير عند الإمام محمد عبده بحجة أن تخصصي الدقيق ليس في التفسير. مع أن شهادتي الأولى، وعمري الفكري والعملي في الدراسة الإسلامية،

وكان لي نصيب كبير في الكتابة عن صاحب التفسير(موضوع الرسالة المطروحة للمناقشة)، بل نشرت عنه بحثا مسلسلا في مجلة الأزهر قبل نحو عشر سنوات.. في الوقت نفسه هناك زملاء أعزاء في شعبتي اللغة والأدب يشرفون (إشرافا لا مناقشة)على طلاب في الدراسات الإسلامية! هل سيلغى هذا الإشراف عملا بمكيال التخصص الدقيق المزعوم؟ أم أن المكيال الخاص لا يطبق إلا على صاحب (الدم الثقيل) الذي هو أنا؟

كنت أتمنى ذرا للرماد في العيون، وتغطية على وضع غير طبيعي أن تتم الموافقة على مناقشتي للرسالة، فأوجه الطالب- على الأقل- في بعض القضايا المنهجية، ولكن من قال إن معاييرنا واحدة ومحايدة؟....

وكيف يحرم الأستاذ- المتفرغ- الذي قيل إن مهمته الكبرى هي الإشراف والمناقشة والتحكيم من المناقشة والإشراف، ويتسول المشاركة في رسالة أو رسالتين؟ ويقال إن الطالب الذي يحظى بعناية (ديليفري) قبل أن تعلن نتيجة التمهيدي، له حق اختيار مشرفه؟ هل صار أصحاب (الدم الثقيل) أمثالي محرومين من الإشراف والمناقشة لأن الطلاب لا يحبونهم ولا يختارونهم؟».

وأضفت تعليقا على اختيار موضوع شبع بحثا ودراسة:

«بالنسبة لرسالة القصة القرآنية أو القصص القرآني، فقد

استهلك الموضوع تماما، وكتب فيه كثيرون، ومنهم العبد لله في كتابي الضخم (البلاغة القرآنية)، ولا أظن تطبيق نظرية غربية على القصص القرآني سيقدم جديدا. قولوا للطالب ابحث عن موضوع جديد، أو قدموا له موضوعا آخر لم يطرقه أحد!

أطلت- أيها الأحبة- فاعذروني، ولكن لا بد من العدل، وإن طال السفر!».

اعتراض رسمي

ثم كان اعتراضي على توزيع الساعات، والإشراف، بعد جلسة مجلس القسم التي تباين فيها التوزيع، ولم يحقق العدالة بين الزملاء الفضلاء، ولكنه آثر بعضهم، وظلم بعضهم الآخر، فكتبت اعتراضا رسميا لرئيس القسم، طالبت بتسجيله في محضر الجلسة، ولكنه للأسف لم يسجل:

«بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ الدكتور رئيس قسم اللغة العربية- كلية الآداب- جامعة طنطا.

تحية طيبة.. وبعد:

فآمل التكرم بتسجيل اعتراضي بمحضر جلسة مجلس القسم 31/ 10/ 2022، على توزيع الساعات بالجدول الدراسي، للفصلين

22-2023، والإشراف على الرسائل الجامعية ومناقشاتها، وكذا لجان الشفوي..

فليس من الطبيعي أن يتباين التوزيع تباينا كبيرا مع الأساتذة المتفرغين، علما أن القرار الجمهوري لسنة 2020 يسوّي بين العامل والمتفرغ، ويجعل للأستاذ الحق في اختيار مواد تخصصه أولا- ثم إن التوافق يفرض احتساب الساعات داخل القسم والأقسام الأخرى، وخارج الكلية، وتوزيعها على عدد الأعضاء بالتساوي أو ما يقرب منه.

وليس من العدالة أن يكون هناك من يشرف على عشرات الرسائل الجامعية، ويناقشها، بينما آخرون يتسوّلون المشاركة في رسالة أو اثنتين كي لا يسقط بدل الإشراف من المكافأة.. على الأقل يتساوى الأستاذ الذي لا يتاح له الإشراف الطبيعي ببعض تلاميذه في الإشراف، وبعض زملائه في المناقشات.

وأعتقد أن تشكيل لجان الشفوي يقتضي مشاركة من يقومون بتدريس المادة أولا، ومن هم أقرب للتخصص الدقيق ثانيا..

مع تمنياتي بالتوفيق والسداد.

أ.د. حلمي محمد القاعود».

آثار مبهجة

بالطبع لم تكن هناك استجابة تذكر، لأن الاشتياق إلى الساعات والإشراف واللجان، وما يترتب على ذلك من آثار مبهجة للمشتاقين، كما يتصورون أو يظنون، أغلق العيون وأصم الآذان عن التخلي عن الظلم السافر، والأنانية المفرطة. الآثار المبهجة من وجهة نظري لا تمثل أي سرور أو فرح في ظل تعليم يتداعى، وانحدار يتسارع، ثم إن بعض أساتذة الاشتياق يفتقرون إلى أوليات التعليم، من إملاء ونحو وصرف، وأبجديات العلم والمصطلح، وسامح الله من تساهل في صناعتهم!

وأعان الله الأمة على استبانة الرشد اليوم قبل الغد!

توزيع الكتاب

تكوين الأستاذ الجامعي الآن بعد الماجستير والدكتوراه، يمثل علامة استفهام كبيرة في معظم الحالات. الاستثناء لا يقاس عليه لأنه يثبت القاعدة، وعلامة الاستفهام تبدأ من تكوين شخص لا يقرأ ولا يحب القراءة، وإذا قرأ فهو لا ينتج من القراءة شيئا ذا بال، وإذا كتب بعد القراءة فهو يكتب غثاء مكرورا لا جديد فيه ولا ابتكار..

ولعل هذا ما يفسر ضعف ما يسمى الكتاب الجامعي. فهو في أفضل الأحوال مذكرة أو ملخص يشبه ما يصنعه المدرس الخصوصي

لطلاب المرحلة الابتدائية، ويكتب عليه بكل أريحية، تأليف: الأستاذ فلان، أو مَلِك مادة كذا، أو صاروخ المسائل الصعبة، أو امبراطور المواد الاجتماعية.. ثم يدخل الأستاذ الجامعي الجديد (وبعضهم لا يحسن الإملاء او النحو أو الصرف كما سبقت الإشارة، ويستوي في ذلك من ينتمي إلى هذا القسم أو ذاك) في صراع مع زملائه الصغار والكبار على عدد الساعات أو الجدول الدراسي. أي أنه يسعى للحصول على أكبر عدد من الساعات ليزداد دخله من توزيع الكتاب أو الكتب التي سيدرسها ولو كانت من صنع غيره!

تاريخ العضو

بالطبع فإن قلة الراتب لها دخل كبير في هذا الأمر، ولكن الحاجة المادية لا تسوغ الغرق في سيولة القيم وبحرها العميق. اختيار عضو هيئة التدريس يحتاج إلى رأي مجموعة أساتذة القسم، وليس الموافقة الروتينية العادية التي تتم عقب اختيار الحاصل على التقديرات الأعلى وحسب، يجب أن يرى أساتذة القسم الجانب الإنساني والفكري والعلمي والثقافي في عضو هيئة التدريس القادم، حتى لا يسيئوا للوطن أو الأمة أو العلم.

ثم إن هناك رأي الجهات الأمنية التي تدقق في اختيار العامل في المناصب الحساسة، مثل الجيش والشرطة والقضاء والجامعات والإعلام والمساجد و... كان رأيها قديما يقوم على استقصاء تاريخ

الشخص المرشح للعمل وعائلته وسلوكه الاجتماعي وعلاقته بالناس وسمعته بينهم...إلخ، أما اليوم فيركز البحث الأمني على نقطة واحدة وما عداها لا أهمية له، وتتعلق هذه النقطة بمدى علاقة الشخص بالتفكير الديني الإسلامي أو عدمها، فإن كانت له علاقة فالباب يغلق في وجهه لأنه سيكون مصدر قلق للسلطات، وإذا لم تكن له علاقة فكل شيء بعد ذلك مسموح!

وسط مشين

ولذا رأينا شخصيات لا تملك أخلاقا رفيعة، ولا قيما عليا، ولا مثلا طيبة، يخترقون الحرم الجامعي، ويصبحون من أساتذته وموجهيه، والمهيمنين عليه، وليت الأمر يقف عند هذا الحد فهناك من يأتي من بيئات لا علاقة لها بالأخلاق ولا العلم ولا السيرة الحميدة، وهناك من يأتي من وسط مشين غير ملائم للجامعة وتقاليدها. قد يكون الشخص فقيرا أو ابنا لرجل بسيط، أو من عائلة رقيقة الحال، ولكنه يملك أخلاقا وقيما ومثلا تضعه في صف الرجال المحترمين، الذين يملكون جدارة البحث العلمي والقراءة التي لا تتوقف، والفهم الصحيح للمفاهيم المختلفة.

للأسف لدينا نماذج غير صالحة تسربت إلى الجامعة في ظل ظروف غير طبيعية، ففرضت لغتها الرديئة وخطابها الجاهل، وأقول الجاهل

بكل قوة، ووصلت إلى أعلى مراتب الدرجات العلمية وهي الأستاذية. كيف وصلتم؟ أهي المحسوبية، أو الوساطة، أو الفساد العام؟

الإملاء الصحيحة

مثلا أستاذ في قسم تاريخ أو جغرافيا أو فرنسي أو فلسفة أو لغات شرقية، أو إنجليزي، أو مكتبات أو آثار أو.. أقسام كليات الحقو ق أو التجارة أو غيرها ولا يعرف كيف يكتب إملاء صحيحة، وتفيض كتاباته على ما يسمى الفيس بوك أو أشباهه بأخطاء فادحة لا تليق بمن يحمل درجة أستاذ. هل الأساتذة في فرنسا يخطئون في كتابتهم إملائيا أو نحويا؟ لا علاقة لي بالفيس بوك وأشباهه، ولكن بعض تلاميذي يرسلون إلى أحيانا صورا لما يكتبه بعضهم على صفحته، فأتحسر على زمن مضى.

المشكلة أن أمثال هؤلاء يتبجحون بمدح أنفسهم، وذم غيرهم، ويعدّون ذواتهم من روّاد الإصلاح والنضال ومقاومة الفساد! ويزعمون أن العالم الفاسد خلا من الصالحين باستثنائهم، وهم من سيعيدونه إلى الصواب والصلاح، وتصفق لهم ميليشيات المعجبين، وتزيدهم مدحا على مدح، بينما كتابتهم تغطي وجهها خجلا من الأخطاء التي لا يقع فيها طلاب الصف السادس الابتدائي!

ما بالك مثلا بأستاذة فلسفة إسلامية لا تحفظ القرآن الكريم ولا نصفه ولا ربعه ولا جزءا منه، ولا تحسن قراءة آية، ثم ترقى

إداريـا- أي بعيدا عن اللجنة الرسمية للترقيات، وتدعي أنها مظلومة، وأن القوم كادوا لها لولا تدخل أحد الأساتذة من معارفها لتنعقد لها لجنة خاصة (إدارية) ترقى بعدها على الفور، وتصبح أستاذة تحمل اللقب الغالي، وتتيه به على الناس، وتقذفهم بالسب والشتم والبذاءة، وتتفرغ لتدبير الفتن والمؤامرات في قسمها والأقسام الأخرى! وتتحول في بعض مراحل أذاها إلى مخبر غشيم يشي بالأبرياء ويضعهم في مواضع الاتهام!

الصوت العالي

نحن أمام نماذج من أسوأ ما عرفته الجامعة على مدى تاريخها الطويل، مقابل الشرفاء المحترمين الذين تفخر بهم الأمة في كل مكان. وهم موجودون في كل الأقسام والتخصصات، ومن ينكر ذلك فهو لا يعرف الجامعة..

صحيح أن الجامعة تأثرت بسيولة القيم، وظهر على السطح التافهون والأدعياء وأشباه العلماء، ولكنهم ليسوا كل الأساتذة وعلمائها وباحثيها، فالصوت العالي لا ينفي وجود المحترمين الذين يفرغون لأبحاثهم وقراءاتهم وطلابهم الذين قد يستجيب بعضهم للخير والرشد.

خذ مثلا ذلك الأستاذ الذي يبيع دينه وعقيدته مقابل الدعوة إلى العلمانية مع أنه يدرس مادة تمت للإسلام بصلة قوية، ويحاول مثل

أرزقية سبقوه أن يلبس عمامة العلمانية للإسلام بزعم أن الإسلام كهنوت فيه غفران وحرمان، وأن رجال الدين(؟) يسيطرون على المسلمين، وأن الإسلام حكم ديني يعادي الحياة!

يظهر صاحبنا في صحف وقنوات عربية وأجنبية تمنح دولارات لا بأس بها، مقابل التشهير بالإسلام وتشويهه. وتبدو على محياه الكئيب سعادة وابتهاج بأكاذيبه وافتراءاته على الدين الحنيف أو قل: جهله بالدين وعلومه التي ينتمي إليها اسميا.. من علمك يا هذا أن العلمانية التي تلغي الإسلام عمليا هي الحل الأمثل لمشكلاتنا المستعصية؟ ومن قال لك إن من صدروا العلمانية يؤمنون بها ويطبقونها في واقعهم، وهم لا يطيقون رؤية امرأة محجبة، ولا يتورعون عن حرق المصاحف، وممارسة العنصرية ضد المسلمين في أوطانهم وخارجها؟

سرقة الشعوب

هناك أساتذة محترمون يرفضون مقولات هذا الأستاذ، ويحترمون دينهم ولا يتاجرون به، ولا يضعونه موضع ازدراء وسخرية بجانب نظريات بشرية قننت لأصحابها أن يتوحشوا (تحت مسمى الاستعمار) في سرقة الشعوب ونهبها، دون أن تسائلهم الكنيسة ورجالها عما نهبوه من بلاد المستضعفين، وعمن قتلوهم في الأراضي المستباحة بقوة سلاحهم وخداعهم ومكرهم.

وبالمناسبة لا يوجد في الإسلام رجال دين كما في الغرب، الإسلام يعرف مصطلح علماء الدين، وهم مثل بقية المسلمين، لا يعصمهم من الله عاصم إلا العمل الصالح والتقوى، ولا يملكون لغيرهم نفعا ولا ضرا، ولكن الأساتذة الذي يزعمون أنهم رسل العلمانية والتنوير والحداثة والتقدمية، يفتقرون إلى أوليات البحث العلمي، وهي ضبط المصطلح، واستخدامه استخداما صحيحا ليصلوا إلى نتائج سليمة وصحيحة، ولكن أنى لهم ذلك، وهم يعيشون حياة العلم بمنطق الذراع والارتزاق والبحث عن الشهرة، ولو كانت على حساب الدين والأخلاق والتقاليد العلمية!

أداة القهر

اقرأ ما يقوله أستاذ جامعي عن الفقه الإسلامي، وقد جاءتني صورة منه بعد أن كتبه على الفيس بوك:

«كنت وما زلت أري فى الفقه الإسلامي أداة القهر والضبط للنفس الإنسانية وللمجتمع(؟).. منه دخلت السياسة إلى المقدس فوظفت الدين لصالحها(؟).. واصطبغت الفتوى بالسياسة أحيانا فشوهت المقدس لصالح المدنس.. فكان الفقه آلة القهر والتشويه(؟).. وفى كتاب ابن خلدون شفاء السائل فى تهذيب المسائل يعرض بدقة فى أصول المباينة بين الفقه كضابط لأعمال الجوارح.. وبين التصوف كمراقب لأعمال القلوب.. يتبدى بوضوح كيف ان

التصوف يشكل حالة انفتاحية للنفس المتطهرة العاشقة لله.. والتي تحيا فى معية خالقها محبة وعشقا لا خوفا ووجلا.. ورغم التداخل بين أعمال الظاهر وحالات الباطن.. فإن أحكام الفقه التى تشرع للطقس وأحوال العباد تفقد جوهر معناه بعدم التركيز على القلب والنية.. ومراقبة المخلوق لخالقه..فى أعماله وأحواله وسكناته.. فالتصوف يعيد الدين للإنسان بعد ما جذبه الفقه ليكون الدين آداة قهر.. فعلم الحقيقة هو المانح للمعنى لعلوم الشريعة.. وعلم الباطن يكسى(!) القيمة على علم الظاهر...لقد تألق المؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون فى كتابه شفاء السائل فى تهذيب المسائل فى عرض دقيق للتصوف بوصفه علم(!) لمجاهدة النفس نحو التخلق بأخلاق الكمال الربانية.. شكرا لهيئة قصور الثقافة على إعادة نشر هذا النص البديع..وشكرا للرائع جرجس شكري على جهده الرائع بالهيئة».

يخلط ويخطئ

أرأيتم أسلوب الأستاذ الجامعي الذي يخلط ويخطئ، ويؤكد أنه يجهل ما هو الفقه وما هو التصوف، وما هو الإسلام! ثم وهو أستاذ جامعي لا يحسن صياغة كلامه صياغة منضبطة، ويخطئ فيما يمكن أن يتفاداه تلميذ في الصف السادس الابتدائي.. ويستخدم مصطلحات كنسية (المقدس والمدنس) ليبرز تنويريته العلمانية الطليعية!

ومع ذلك فإن أصدقاء المذكور لم يتركوه يمرح بجهله ويرتع بادعاءاته الغريبة، فردوا عليه، بعضهم في حياء وآخرون بطريقة مباشرة، فقد قال بعضهم: إذا افترضنا أن الفقه أداة ضبط وتقنين ذات طبيعة سلطوية أو مؤسسية، فالتصوف احتفظ منذ العصور المملوكية كأداة ضبط وفهم ديني ومجتمعي داخل المجتمع وطوائفه، وقال بعضهم في رده المباشر: هذا كلام غريب عجيب يتنافى مع اقوال أئمة التصوف انفسهم.. فمن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق.. بهذا ولهذا يكون العرض.. أما هذا الكلام فغير صائب بالمرة.فلا يتصدر علم الحقيقة إلا عالم بالشريعة.

الحقيقة نسبية؟

ويرد صاحبنا مداريا جهله وادعاءه أمام صديقه المتخصص، أن الحقيقية نسبية فى أفهامنا وليست مطلقة! وهي الجملة التي يلوكها دائما عراب العلمانية في مصر «مراد وهبة»- وهو طائفي شديد التعصب- وتلامذته من خصوم الإسلام، الذين يريدوننا-بالعربي الفصيح- أن نخلع الإسلام، لنكون تنويريين ظرفاء غير مزعجين بإسلامنا الذي يرونه ظلاما وتحجرا وتخلفا وماضوية وأشياء أخرى!

ما درى صاحبنا أن الفقه الإسلامي دليل العبقرية العقلية للمسلمين، التي أثبتت صلاحية الإسلام في كل زمان ومكان،

والفقه الاسلامي كما- رد عليه أحد أصدقائه الصرحاء- مفخرة التراث الديني والعربي، وأضاء مجاهل الحياة وأسهم في إثراء العقل والرأي.. وليس بهذا الشين الذي تصفه به.. هل يمكن أن يضرب لنا مثلا بكلامه حتى نتعرف على جناية الفقه وتشويهه واستغلال السلطة له؟ مجرد مثال فقط.

لم يكن لدى المذكور مثال إلا مقتل الحلاج. ولأنه لم يقرأ عنه ولم يعرف سيرته، فقد أخطأ في مثاله لأن الفقه لم يقتل أحدا بغير حق إلا في أعراف الدجالين والنصابين والجاهلين بالإسلام. لقد اهتم المستشرق ماسينيون بالحلاج، وهو مستشرق معاد للإسلام والمسلمين كما هو معلوم، وتأثر به الشيوعيون والطائفيون والليبراليون وأشباههم في بلادنا، ولم يلتفتوا إلى ما كتبه المؤرخون الثقات عن خيانة الحلاج لأمته، وتجسسه على بلاده لصالح الصليبيين، ومشاركته في ألاعيب السياسة والحكم لصالح خصوم الإسلام! هل كان الفقه الإسلامي هو الذي قتل الحلاج حقا؟ هنيئا للجامعة بأساتذتها العلمانيين التنويريين!

ظالمون ومظلومون

دعونا الآن من الأساتذة، لننظر في أمر الطلاب، وهؤلاء ظالمون ومظلومون. جاء الطالب من البيت وليس من المدرسة، ليكون طالبا جامعيا، يتعلم بمنطق البحث عن المعلومات والأفكار والقيم،

ولكنه جاء يحمل في ذهنه فكرة أخرى مؤداها أن الجامعة رحبة واسعة يمارس فيها التعبير عن ذاته التي تخوض مرحلة المراهقة المضطربة، ويعتقد أن المواد الدراسية مجرد كتب يتم تلخيصها في نقاط يركز عليها بالحفظ ليجيب على أسئلة مقالية أو اختيار من متعدد، مثلما كان الأمر في الثانوي ومن قبله الإعدادي، أي إن ذهابه إلى المكتبة مسألة غير واردة، وتكليفه ببحث قصير أمر هين فأصحاب الأكشاك أو المكتبات الصغيرة القائمة بالقرب من الجامعة تنهض بالموضوع في وقت قصير مقابل مبلغ معلوم، ويبقى للطالب أو الطالبة مجال العلاقات الخاصة التي تحلم بالحب والزواج وقضاء الصحبة الممتعة، ولذا تمتلئ الممرات والسلالم بثنائيات ورباعيات يسدون الطريق على الصاعد والنازل، وتغص الحدائق الصغيرة المحيطة بمباني الكلية أو الجامعة بهؤلاء الشباب، الذين لا علاقة لهم بالتقاليد الجامعية أو مواضعاتها. ولأنهم قادمون من السناتر في المرحلة الثانوية أو الدروس الخصوصية، تجدهم يتجولون بحرية شبه كاملة داخل المدرجات، لا يعرفون الاستئذان، ولا يوقرون الأساتذة، ويخرجون ويدخلون بمزاجهم، ولا يعنيهم أن يستمعوا إلى المحاضر، أو يتيحوا له فرصة إفهامهم ما يقول، لأن الأمر ليس مهما. بالنسبة لهم، فيشكو كثير من الزملاء، ويضطر بعضهم إلى التشدد في التعامل، أو يستدعي العمال، لإخراج بعضهم، أو إرسالهم إلى الإدارة.. قد يعود

السبب إلى الأستاذ نفسه الذي لم يحسن توظيف وجوده في جذب هؤلاء المتمردين المراهقين، وإقناعهم بأهمية المحاضرة، وضرورة التفاعل معها.. هم مظلومون لأنهم لم يعيشوا حياة التلمذة الحقيقية في الإعدادي والثانوي لأنهم قضوها داخل السناتر وبيوت المدرسين الخصوصيين، بعضهم لا يعرف زملاءه، ولم يتفاعل معهم في رحلة مدرسية، أو في جماعة الإذاعة أو الصحافة أو الفنون، أو في ملاعب الكرة، نادرا ما يلعبون الكرة. إنهم الآن يلعبونها بالليل، يخرجون إلى الملاعب التي أقيمت على الأراضي الزراعية الخصبة ليلعبوا ما يسمى السداسيات، والفريق يكاد لا يعرف بعضه، لأنه فريق غير متجانس، يلعب أفراده بالاشتراك، قد يكون منهم الموظف والعاطل والطبيب المتخرج حديثا، والصيدلي الذي مل الوقوف في صيدليته ويريد أن يحرك دمه، والطالب في المرحلة الإعدادية أو الثانوية أو العامل في مصنع صغير، أو.. الطالب الجامعي مظلوم لأنه لم يعدّ إعدادا طبيعيا كي يكون طالبا جامعيا بحق.

النشاط الجامعي

ومع تغيرات المجتمع صار النشاط الجامعي خاويا من الفعاليات المؤثرة بدءا من الرياضة حتى الفنون، مرورا بالندوات التي تعالج القضايا القومية والوطنية واستضافة الشخصيات العامة، ومن ثم فالطالب الجامعي لا يفيد من النشاط الاجتماعي أو الثقافي أو

الرياضي، وخاصة أن المدى الزمني للفصل الدراسي قصير، وتزيده الامتحانات الطويلة تقصيرا، ولعل بعض التصرفات الغريبة التي يقوم بها الطلاب في تجمعاتهم حول الكلية ناتج عن عدم استيعابهم في النشاط المفيد، وقد توسعت الصحف والمواقع قبل سنوات قليلة في نشر حفلة أقامها الطلاب لخطوبة أحدهم لإحدى زميلاته في فناء الكلية التي ينتسبان إليها، وهو تصرف لم يكن يحدث سابقا، أو يقره نظام جامعي يتحرك الطلاب في داخله حركة طبيعية.

من أجل العلاوة

لاحظت أن معظم طلاب الدراسات العليا في القسم الذي أعمل به لا ينتمون إلى الكلية. طالب أو اثنان فقط ينتسبان إلى القسم أو الكلية التي حصلا منها على الليسانس. اثنان فقط يستجيبان لداعي الماجستير والدكتوراه، وقد يكون أحدهم معيدا فتكون دراسته العليا في الكلية أمرا حتميا، في بعض السنوات لم أصادف أحدا من القسم والكلية. أغلب طلاب الدراسات العليا في قسمنا من الأزهر الشريف، وهؤلاء حضروا للدراسة بعد ان استعصت عليهم الدراسة في كليات الأزهر، لعدم استيفاء الشروط التي يفرضها الأزهر وفي مقدمتها حفظ القرآن الكريم. ولا أظن أن دراسة اللغة العربية تثمر دون حفظ القرآن الكريم، فهو أساس اللغة والفقه والتفسير والبلاغة والأدب وغير ذلك من آداب العربية.

هؤلاء الأزهريون يعمل كثير منهم في وظائف بالأوقاف، (إمام، واعظ، مقيم شعائر، مـدرس،...) وجاءوا للدراسة والحصول على الماجستير والدكتوراه من أجل العلاوة التي قررتها الوزارة لمن يحصل على شهادة عالية، لا يهمهم العلم والبحث بقدر ما يهمهم المبلغ الذي سيضاف إلى رواتبهم، وكثير منهم بينه وبين الإملاء والنحو عداء مقيم!

الخسارة أكبر

أطلق عليهم بعض الساخرين «مطاريد الأزهر»، ولكن بعض الجهات في الجامعة ترحب بهم على أساس أن ما يدفعونه من رسوم يصب في دعم الكليات ماديا، ولكنى أرى أن الخسارة أكبر من أي دعم مالي، لأن هذا الأزهري الذي لا يحفظ القرآن، سيكون وبالا على الإسلام واللغة والشريعة والقانون والتاريخ.. والوطن والأمة، فمن يفتقد أوليات الثقافة الإسلامية. لن يقدم نموذجا صالحا للعالِم الإسلامي المؤثر والمفيد.

في ظل التردي العام للتعليم تبقى مسألة إصلاح التعليم من البداية عند تعليم الأطفال بالحضانات والمرحلة الابتدائية. يجب توحيد التعليم وفقا لمنهج قومي يشمل جميع المدارس الحكومية والخاصة والأهلية، وينبغي التركيز على الأوليات التي ترافق الشخص في حياته إلى نهاياته، أعني مسألة القراءة والكتابة التي

يستهين بها بعض الناس ويرون أن إدخال مواد فوق قدرات الأطفال إلى المناهج تحقق التطوير المأمول. من المعيب جدا أن يصل الطالب إلى نهاية البكالوريوس والليسانس وهو لا يحسن الكتابة والقراءة والكتابة، وتكون الكارثة أكبر لو كان هذا الطالب في قسم اللغة العربية، وفي أوراق الامتحانات للفرقة الرابعة- لغة عربية ببعض الكليات مثلا، تجد عجائب لا حصر لها وغرائب يصعب عدها لنماذج الكتابة للطلاب الذين يفترض أن يعلّموا الناس الكتابة والقراءة، وأن يقوّموا ألسنة طلاب المدارس الدنيا، وأن يصحّحوا لغة الصحافة والدعاية والدراما والمسرح والسينما... كان الطلاب في أقسام اللغة العربية قبل عقود بعيدة يعملون في الصحف لتوفير بعض الدخل يساعدهم على استكمال دراستهم الجامعية، وكان بعضهم يصحح لكبار الصحفيين المشاهير، أين تجد هؤلاء الطلاب المصححين الآن بينما أفضلهم نتائج يحتاج لمن يصحح له؟

صبيان الورش

في المرحلة الابتدائية أثقال وأحمال في المناهج الدراسية تجعل الأطفال يكرهون العلم والتعلم، خاصة وهم يرون أن زملاءهم الذين تركوهم وخرجوا إلى الواقع وعملوا صبيانا في الورش والمحلات والوكالات والخدمات أحسن حالا، وإذا انعطف أحدهم نحو كرة القدم أو غناء المهرجانات أو مواقف السيارات

وقيادة التكاتك يحصل على دخل كبير. هل سمعت عن مادة تكنولوجيا المعلومات أو مادة المهارات المهنية اللتين يدرسهما طالب الصف الرابع أو الخامس الابتدائي إلى جانب المواد الأخرى؟

في الصفين الرابع والخامس الابتدائي يدرس الطالب وهو في سن التاسعة أو العاشرة المواد الآتية:

اللغة العربية- الرياضيات- العلوم- الدراسات الاجتماعية- تكنولوجيا المعلومات- اللغة الانجليزية- المهارات المهنية- التربية الدينية. والمادة الأخيرة لا تضاف إلى المجموع، لأنها هامشية ولا تدرس في الواقع.

مواد كثيرة، وطويلة، وثقيلة على طلاب صغار يتشتتون بين الأهم والمهم والهامشي، بعضها صعب للغاية، وكان الأجدر تدريسه في المرحلة الإعدادية وربما الثانوية، وبعضها وضع من أجل الظهور بمظهر التطور والحداثة وما هو بذلك. الرياضيات الحديثة، وفي أفضل الأحوال كان ينبغي التدرج في تدريسها، ولكنهم ظنوا أن طالب الصف الرابع أو الخامس طالب جامعي يملك عقلا ناضجا، ويستطيع التعامل مع عناصر المادة الرياضية كأنه ابن العشرين!

المنافسة العالمية!

مادة التكنولوجيا تهدف كما يقول واضعو المادة إلى بناء شخصية المواطن المصري، وتربيته على الاعتزاز بوطنه، وتنمية مهارات

التفكير والإبداع، وإكسابه المهارات الحياتية اللازمة لجعله قادرا على التعلم مدى الحياة وعلى (المنافسة العالمية!).

تتكون المادة من عدة محاور يدرس الطالب بعضها في الفصل الأول من العام، وبعضها الآخر في الفصل الثاني. وفي المحور الثالث مثلا، وعنوانه المواطنة الرقمية يدرس الطالب ثمانية دروس، منها: إثارة الفضول الفطري للمحتوي المرتبط بالدرس، واكتشاف كيفية استخدام المصادر الرقمية وأدوات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في التواصل مع الناس، وكيفية حل مشكلات حياتنا اليومية، بالإضافة إلى المواطنة الرقمية والمسئولية الاجتماعية، وإنشاء محتوى بتكنولوجيا المعلومات.

وفي المحور الرابع، يدرس الطالب في ثمانية دروس أيضا مشروعات برمجية...

وهذه الدراسة جميلة وغاياتها نبيلة، ولكنها لا تناسب الطفل الصغير حين يدرسها في صورتها الذهنية المجردة وعبر كتاب يحمله الطالب على ظهره، وكان الأولى أن تكون مادة تطبيقية يتعرف عليها الطالب بيديه وعينيه معا، أما أن يحفظ ما يتعلق بها من كلام نظري مجرد، فهذا هو الخلل الذي لا يثمر، ولا ينقل أبناءنا إلى عصر التكنولوجيا، إنها مادة ثقيلة على الأطفال!

ومـادة المهارات المهنية مثل مادة التكنولوجيا، ثقيلة وعجيبة، لأنها تدرس نظريا أيضا، بينما الواجب أن تكون في الورشة أو المعمل.

مهارات التفكير العليا

يقول واضعو المادة أو مؤلفوها إنها تزود تلاميذ الصف الخامس بالمهارات المهنية اللازمة للاختيار والنجاح في حياتهم المهنية في المستقبل، بغض النظر عن المهنة التي سوف يختارونها. سوف يطوّرون صفاتهم الشخصية كمهارات التواصل والقيادة والإبداع والوعي الذاتي والمواطنة التي يمكن تطبيقها على أي خيار مهني، ومن خلال تنمية (مهارات التفكير العليا!)، ومعرفة أهمية التعلم مدى الحياة، سيكون التلاميذ على أتم استعداد لبناء مستقبلهم وليصبحوا أعضاء منتجين في المجتمع.

ويدرس طلاب الصف الخامس في المحور الثالث: الصحة والمجتمع(فوائد الأنظمة الغذائية المتوازنة، والبدائل النباتية للحوم.... وفي المحور الرابع: الرؤية الفنية للعالم حيث يستكشف التلميذ- كما يرى واضعو المقرر- عناصر التصميم الجيد للحديقة، والعلامات التجارية، وطرق عرض السلع، والإنتاج المسرحي، وفن التطريز، والألبوم....

لا يذوقون اللحم

وأتساءل بأي حق تطرح مثل هذه القضايا على طلاب صغار لا يعرفون ما هو الغذاء المتوازن أو غير المتوازن، وكثير منهم لا يذوقون اللحم إلا في المواسم أو المناسبات الدينية، ويسكنون في غرف ضيقة شبه مظلمة، ولا يدركون مفهوم الحديقة أو العلامة التجارية أو ما هو المسرح، وكان يكفي بدلا من هذا المقرر الذهني المجرد الطويل موضوع في كتاب القراءة يكتب بأسلوب سهل ميسر يتناسب مع مستوى الأطفال وهذه السن، وعندما يكبرون يمكن أن تطرح عليهم مثل هذه القضايا.

وفي سياق الإثقال على الطلاب بمواد غير مثمرة، يتقرب بعض المنتمين إلى اللغة العربية بالنوافل إلى بعض الجهات، ويوصي بحذف آيات قرآنية وأحاديث نبوية من مقررات التعليم العام والجامعي، حتى لا يتكون لدينا إرهابيون يكدرون صفو السلم العام ويهددون استقرار المجتمع، وسبق أن أشرت إلى الضغوط الدولية الاستعمارية على البلاد العربية لتغيير مناهجها بدعوى مقاومة العنف، ومحاربة الإرهاب، وكأنّ الإسلام يدعو إلى القتل والدم على مدى أربعة عشر قرنا! وأنه هو الذي قتل المسلمين في الحروب الصليبية والاستعمارية (الحملة الفرنسية على مصر قتلت ثلاثمائة ألف مصري مسلم من مجموع الشعب وقتها 2,1 مليون نسمة!! وجورج بوش الابن

قتل في أفغانستان والعراق أكثر من مليون مسلم بريء!)، ووضع بعضهم خططا لتنحية كل ما يتعلق بتدريس قيم الإسلام بوصفها تحضّ على التمييز والتفرقة والكراهية! وقرر بدلا منها مواد تتحدث عن الفنون المسرحية والدرامية والسينمائية وحقوق الإنسان، وكأن الإسلام يعادي الإنسانية والفنون الرفيعة، وكأن الطلاب لا يعرفون السينما والدراما والمسرح، مع أن أجهزة الدعاية والهواتف الذكية تضخ ليل نهار آلاف المواد الفنية أمام عيونهم وفي آذانهم!

امتحان في الشانزليزيه

يجب تصفية المواد الدراسية من المواد الهامشية والاستعراضية التي تثقل المرحلتين الأساسية والجامعية، والتركيز على المواد التي تصاحب الطلاب في حياتهم، وتزري بهم إذا لم يتقنوها. في شهر مايو 2023، أقامت بعض الجهات في الشانزليزيه بباريس أكبر امتحان للإملاء في الشارع حضره خلق غفير من الفرنسيين تتراوح أعمارهم بين عشر إلى تسعين سنة، للتنافس على من يكتب الفرنسية دون أن يخطئ، وطيرت وكالات الأنباء صورة مفصلة ودقيقة عما جرى من حماسة الفرنسيين للغتهم، ورغبتهم القوية ألا يخطئ أحد في كتابتها!

فئران تجارب

نحن نحتاج إلى فكر عاقل إذا كنا نريد النهوض بالتعليم. الذين يحبذون أن نقلد الغرب في مناهجه ونظمه يجب أن يتأكدوا

أولا أن لدينا إمكانات الغرب وظروفه حتى يتيسر تنفيذ خططهم. أما أن يجعلونا فئران تجارب تنحدر بالتعليم أكثر مما تنهض به فهذا عبث ولهو وسخف، منذ عقود ونحن نتعرض لمحاولات غريبة: إلغاء الصف السادس، ثم إعادة الصف السادس، تدريس لغة أجنبية في المرحلة الابتدائية ثم الشكوى من ضعف اللغة العربية، تغييرات في الكتاب المدرسي تضع الطالب في متاهة، الامتحانات المقالية والاختيار من متعدد، والبابل شيت والامتحان من الكتاب المفتوح... ثم يخرج مسئول في التعليم يقول دون خجل إن فنلندا ستأخذ بالتجربة المصرية في التعليم! هل ستعتمد فنلندة نظام الفصول المكتظة بسبعين تلميذا؟ هل ستعمل بنظام الفترتين والفترات الثلاث؟ هل ستمضي على نسق السناتر والدروس الخصوصية.. للأسف لا أحد يحاول أن يحترم عقول الناس، معتمدا على ترويج الصحف والشاشات والإذاعات لمقولات استعراضية لمسئولين خواجات أو شبه خواجات!

توحيد التعليم

نحن محتاجون إلى مواجهة عملية لانهيار التعليم وليس تنظيرات بعيدة عن الواقع والإمكانات والمواضعات. يجب توحيده كما سبقت الإشارة، توفير المكان المعقول للطالب، ويمكن الإفادة بالمساجد والزوايا والكنائس والأندية والقاعات الموجودة ببعض

المؤسسات والمباني الخالية والمستأجرة، ثم الرجوع إلى المناهج القديمة قبل انقلاب 1952، وخاصة في اللغة العربية فقد خرّجت أعلاما وعباقرة قبل ضجيج التطوير والتحديث، ثم محاولة استعادة اليوم الدراسي الكامل، وقبل ذلك وبعده رفع مستوى المعلم ماديا ومعنويا، ولو بالتدريج، وأرى ضرورة إلغاء كليات التربية، وتحويلها إلى معاهد تربية مدتها سنتان، وتقبل الحاصلين على أعلى التقديرات من خريجي الأزهر ودار العلوم وكليات الآداب والعلوم والتجارة ولا يقل تقدير أحدهم عن تقدير جيد.

المعاهد الفنية

ثم تخيير من يقوم بالدروس الخصوصية بين البقاء في المدرسة ورفع راتبه، أو مغادرتها إلى بيته ودروسه الخاصة التي يجب تجريمها قانونا، وأعتقد أن إغلاق السناتر أمر هين مثلما تغلق المطاعم والكافيهات والمحلات العامة، ومعاقبة من يعملون فيها، وكل ذلك ليذهب الطلاب إلى مدارسهم، ويبقوا فيها طوال أيام الدراسة، ثم فتح المعاهد الفنية لتستوعب طلاب الثانوية العامة، في كل المحافظات والتجمعات من أجل تلبية احتياجات المجتمع، وخاصة مجالات الحاسوب والصحة والتمريض والتحليلات والأشعات والميكانيكا والنسيج والزراعات، وغيرها، مع تشجيع خريجيها بالحوافز والامتيازات، وفتح الآفاق أمامهم بإقامة المصانع

الصغيرة والمزارع في المدن والقرى والصحراوات، وتوفير السكن ووسائط المعيشة والمدارس والمستشفيات.. لتشكيل مجتمعات جديدة راسخة ومنتجة.

سر النهضة

وسوف نجد أن ما ننفقه على التطوير الحقيقي للتعليم وليس الدعائي والشكلي أقل بكثير، وفي تجارب الأمم التي نهضت علميا ما يفيد، لا أتحدث عن اليابان، ولا العدو الصهيوني، ولا ألمانيا، ولا رواندا، ولا موزمبيق التي يستخف بها بعض الثقلاء، ولكن أتحدث عن تجربة ماليزيا وسنغافورة وإندونيسيا وفيتنام وتايلاند والهند، وبالطبع أنتم تعرفون سر النهضة الذي يتلخص في كلمة واحدة، أشار إليها نجيب محفوظ وسماها الكلمة الملعونة! وأنا لن أذكرها.

مسابقات القراءة

تمنيت أن تلغى المواد الدخيلة أو الهامشية على المقررات، وتنشيط المكتبات ومسابقات القراءة مقابل هدايا رمزية أو تكريم رمزي من المدرس أو الناظر أو رئيس القسم أو عميد الكلية أو رئيس الجامعة، وإعادة كراسة «ثمرة القراءة» التي يسجل فيها الطالب ملخص الكتب التي قرأها، وتوجيه الطلاب إلى زيارة المكتبة، وحبذا لو كانت زيارات جماعية بقيادة الأستاذ وتخصيص ما يعادل حصتين

أو محاضرة ممتدة لهذا الغرض النبيل، فيتعرف الطلاب على الكتب التي لا يرونها في المقررات أو تلك التي يسمعون عنها ويودون تصفحها، فضلا عن التعرف على أقسام المكتبة ومحتوياتها، وغير ذلك مما يشدهم إلى كتاب آخر غير الكتاب المدرسي. والتعرف على عالم أرحب وأوسع يكتشفون فيه المهارات الفنية والتكنولوجيا والثقافة العامة والتاريخ والمستقبل.

العودة من الموت

في السنوات الثلاث الماضية ترطّب جو الحضور الصامت في الجامعة، والسياق الخشن في العمل، والعودة من الموت بعد الإصابة بالكورونا، فكانت هناك بعض الكتب التي نشرتها نشرا شبه مجاني، وكانت فرصة لإحياء كتب قديمة نشرتها في شبابي، ونفدت نسخها، وساعدني على نشرها عدد من الفضلاء في مصر والبلاد العربية، منهم نجلي محمود، والأستاذ محمد الشرعة، ثم شملتني بعض التكريمات والجوائز، وهذا من فضل الله علينا وعلى الناس.

كانت رابطة الأدب الإسلامي العالمية قبل خمس سنوات قد تفضلت بإعلامي عزمها على تكريمي من خلال حضوري بمكتب القاهرة، ولكن ظروفي الصحية حالت دون الحضور، وأخيرا استقر الرأي على أن يحضر أحد أبنائي ممثلا لي، وقد حضر ابني أحمد وحفيدتي رقية (عشر سنوات) هذا التكريم، ولقيا حفاوة كبيرة من

رئيس المكتب صديقي الدكتور صابر عبد الدايم، الشاعر الكبير والعميد الأسبق لكلية اللغة العربية بالزقازيق، والشاعرة الكبيرة نوال مهني نائبته، والجمع الغفير من الحاضرين، وقد سجلتُ لهم كلمة أذاعوها في الاحتفال.

ثم كان إعلان فوزي بجائزة التميز في النقد الأدبي من اتحاد كتاب مصر 2021 دفعة كبيرة في مجال الرضا النفسي أو الروحي، أو «أوبة الرضا» كما يسميها محمد حسين هيكل «في منزل الوحي». الجائزة، أعلى جوائز الاتحاد، قيمتها المادية متواضعة، ولكن قيمتها المعنوية كبيرة للغاية، وكان يتهافت للحصول عليها أهل الحظيرة الثقافية مع أن جوائزهم أكبر ماديا، وتصحبها طبول ودفوف وزمر دعائي كثير!

مناحة رخيصة

ومع ذلك فإن الحظائريين الأرزقية لم يفوّتوا الأمر يمر هادئا بالنسبة لي، فأقاموا مناحة رخيصة على صفحات إحدى المجلات الميتة، وآثروا أن يكونوا مخبرين غشما، في أمور غيرهم أعرف بها، ولا يحتاج إلى مساعدتهم. لقد تصدى لهم شرفاء من أهل الأدب والثقافة الأحرار، وبينوا فساد حملتهم الرخيصة البذيئة.

وغلبت الطبيعة الطيّبة على القسم العلمي الذي أعمل به، فأقام حفلا تكريميا في يوم اللغة العربية العالمي 2022 لمن تجاوزوا

السبعين، وحضر الحفل عميد الكلية والوكلاء وجمع غفير من طلاب الدراسات العليا والليسانس والطلاب الأجانب الذين يدرسون اللغة العربية وآدابها في كليتنا، وألقيت قصائد شعر وكلمات ثناء من جانب المحتفلين، كما وزعت دروع التكريم، وقد تحدثت بوصفي واحدا من المكرمين فشكرت الكلية والقسم، وتحدثت عن حال اللغة العربية، وطالبت بضرورة إعادة الكتاتيب، وتشجيع القائمين عليها، وتوحيد التعليم في المرحلة الابتدائية، وتأجيل تعليم اللغات الأجنبية إلى المرحلة الإعدادية. وقلت إن بعض الدول تحتفي بنشر لغاتها في الخارج مثلما تحافظ عليها في الداخل، وذكرت أن فرنسا ترعى منظمة دولية تنهض باللغة الفرنسية اسمها الفرنكوفونية، وسفيرها في القاهرة يشد الرحال إلى جامعات مصر التي تدرس الفرنسية في بعض الأقسام العلمية لدعمها وتقديم الجوائز للدارسين الفائقين. يجب أن نهتم بلغتنا العربية ونبذل في سبيلها ما نستطيع.

وأخيرا، كانت هناك نفحة ربانية، فقد حصل نجلي محمود على الدكتوراه في الأدب الأندلسي، وناقشها في مايو2023 بكلية الآداب، جامعة عين شمس، ونالت ابنتي فاطمة الزهراء الدكتوراه في علم الاجتماع الإعلامي، من كلية الآداب بالسويس، وناقشت رسالتها في يونيه 2023.

وقد خفف هذا عني بعض الأحزان تجاه شقيق لهما يمر بظروف صعبة، ومنحني شيئا غير قليل من «أوبة الرضا»، قبل أن أغادر دار الفناء وأرحل إلى دار البقاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المجد في المحرم 1445هـ= 11/ 8/ 2023م.

قائمة مختصرة بكتب للمؤلف

أولا- كتب صادرة عن دار النشر الدولي بالرياض:

النقد الأدبي الحديث: بداياته وتطوراته.

تيسير علم المعاني.

الأدب الإسلامي: الفكرة والتطبيق.

محمد- صلى الله عليه وسلم- في الشعر العربي الحديث (طبعة ثانية منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة).

المدخل إلى البلاغة القرآنية.

القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث: دراسة ونصوص (طبعة رابعة منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة).

تطور النثر العربي في العصر الحديث.

تطور الشعر العربي في العصر الحديث.

المدخل إلى البلاغة النبوية.

الأدب المقارن: المفهوم والتطبيق.

ثانيا- سرديات:

رائحة الحبيب (مجموعة قصصية).

الحب يأتي مصادفة (رواية).

زمن البراءة: النيل بطعم الجوافة (الجزء الأول من السيرة الذاتية).

زمن الهزيمة: النيل لم يعد يجري(الجزء الثاني من السيرة الذاتية).

زمن الغربة: النيل لا طعم له(الجزء الثالث من السيرة الذاتية).

زمن الرحيل: النيل يودع أحبابه (الجزء الرابع من السيرة الذاتية).

شغفها حبا، (رواية).

محضر غش، (رواية).

شكوى مجهولة، (رواية).

منامات الشيخوخة، (قصص).

الرجل الأناني(رواية).

اللحية التايواني(رواية).

الشمس الحارقة (رواية).

مكر الليل والنهار (رواية).

مالك الملك (رواية).

تغريبة معروف الإسكافي (رواية).

مجلة الأنس! (رواية).

أم سعيد (رواية).

شجرة الجميز (رواية).

المجنون الجميل (رواية).

الجرابيع (رواية).

ثالثا- كتب أدبية ونقدية:

قصتي مع محمد عبد الحليم عبد الله (الغروب المستحيل).

الرواية التاريخية في أدبنا الحديث (طبعة رابعة).

الوعي والغيبوبة: دراسات في الرواية المعاصرة.

إنسانية الأدب الإسلامي.

حصيرة الريف الواسعة.

أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة.

الحكاية كلها معاصرة (دراسات في الرواية).

الحداثة العربية: المصطلح والمفهوم (طبعة ثانية).

نجيب محفوظ من الجمالية إلى نوبل، بالاشتراك مع آخرين، تحرير وإشراف أسامة الألفي.

أمل دنقل عابرا للأجيال، بالاشتراك مع آخرين، تحرير وإشراف: أسامة الألفي.

مدرسة البيان في النثر الحديث.

الزاهد أنور الجندي: حياته. أدبه. فكره.

متنبي الرواية نجيب محفوظ.

لويس عوض: في ميزان الأدب والنقد.

المآذن العالية: رجال من ذهب.

حكايات الجواري والعبيد (الرواية المضادة).

المتنبي لا يخاف الإعراب.

الحلم والدهشة (دراسات أدبية).

الفجر الصادق: تحديات الأدب المعاصر.

التاريخ والواقع: في الرواية المعاصرة.

رابعا- إعلام:

الصحافة المهاجرة: رؤية إسلامية.

خامساً- كتب للأطفال:

واحد من سبعة.

سادسا- كتب محققة:

فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية.

تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، أحمد مصطفى المراغي.

أحسن ما كتبت.

المتنبي، عبد الوهاب عزام (تحت الطبع).

***

فهرس الموضوعات

1 – القرية الظالم أهلها! 5

2 – ثقافة الإمتاع والمؤانسة! 62

3 – القبض على الجمر..! 112

4 – الجامعة: خريف الصمت! 165

قائمة مختصرة بكتب للمؤلف 217